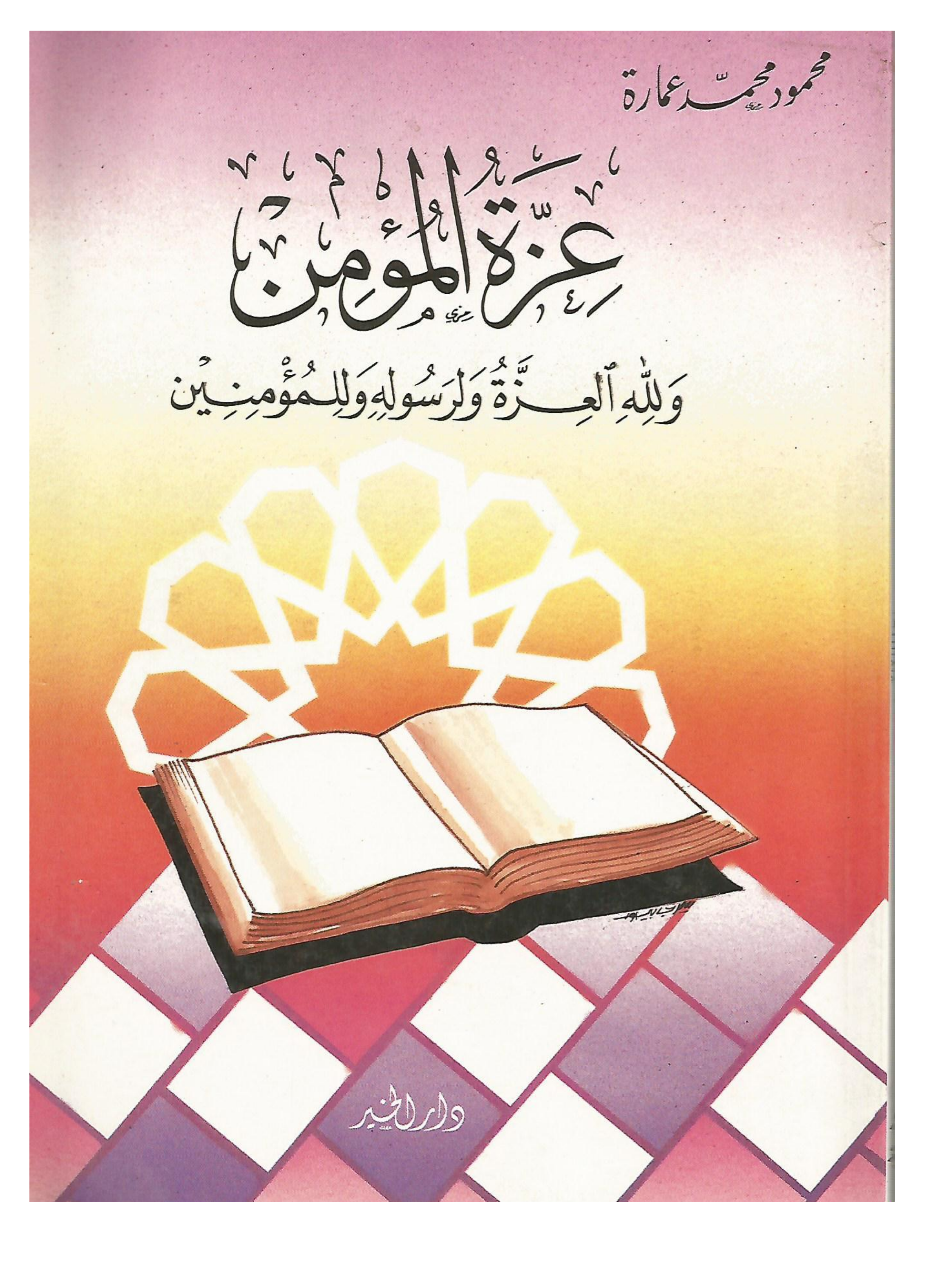

محمود محمد عمارة
عزة المؤمن
ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين
دار الخير

وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ



عزة المؤمن

الأستاذ الدكتور
محمود محمد عمارة
كلية أصول الدعوة والدين
جامعة الأزهر

دار الخير

فهـرس الكتـاب

الموضـوع	الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

أحياناً تتداخل الفضائل والرذائل . . فلا يدري الإنسان عن موقف ما . . أهو داخل في حدود الفضيلة . . أم في حدود الرذيلة؟ . وذلك نظراً للفوارق الدقيقة بينهما . . والتي لا يلمحها إلا أولو البصائر الكاشفة .

فالعزة مثلاً : هي تسامي النفس عن مواطن الإهانة . .

والكبر : هو استنكاف النفس عن الإتيان بالعمل الصالح . . ظناً بأنه لا يليق بمنزلتها . .

وربما حاول الإنسان أن يعتز بشخصيته متسامياً بها إلى أعلى . حتى لا تنحط إلى وهدة المهانة . . فيتورط في رذيلة الكبر وهو لا يدري . .

* * *

بل ربما أدرك طالب العلم معنى العزة لغة واصطلاحاً . . وأكثر من ذلك : قد يحس بآثارها الحميدة في نفسه . وفي مجتمعه . . لكنه مع ذلك لا يملك الإرادة الكاملة على أخذ نفسه بها . ومعاملة الناس على قانونها . . إما لضغط الشهوة أو غلبة الجهل .

* * *

اختلاف وجهات النظر

وتبعاً لزاوية الرؤية . . ودرجة الوضوح . . فقد اختلفت وجهات النظر في تحديد المتشابهات من الفضائل والرذائل . . واختلف الحكم بناء على ذلك . . يقول الشاعر :

وفي النـاس مَنْ عَـدَّ التـواضـع ذلـة وعـدَّ اعتـزاز النفس من جهله كبـرا

* * *

قال رجل للحسن بن علي: إن الناس يزعمون أن فيك تيهاً. فقال: ليس بِتيهٍ. ولكنه عزة. وتلا قوله تعالى:

﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ [المنافقون: ٨]

* * *

وقد اختلط الأمر حتى على من يعيشون في بيت واحد: بين الوالد وولده. بين الأصل وفرعه:

قال عبد الرحمن الناصر - الخليفة الأموي لابنه «المنذر»: إن فيك لِتَيهاً مفرطاً. وإن العيون تمج التيّاه. والقلوب تنفر عنـه. فقال المنـذر: (إن لهذا السلطان رونقـاً يريقه التبذل. وعلواً يخفضه الانبساط. ولا يصونه إلا التيه والانقباض).

ثم ذكر أناساً يعدون تواضع الرجل صغراً. وتخفضه خسة. فقال له أبوه: ابق وما رأيت!!

ويذكرنا هذا بما قاله الشاعر:

يقـولـون لي فيـك انقبـاض وإنمـا رأوا رجـلاً عن مـوطن الـذل أحجمـا
أرى النـاس من دانـاهـم هـان عنـدهم ومـن أكـرمتـه عـزة الـنفس أُكـرِمـا

* * *

يحس العزيز براحة ضميره.. وسلامته - كما قيل بحق - من ألم الهوان الـذي يحس به الذليل فلا يهنأ له عيش.

وينعكس الإحساس بالعزة ليكون وقاراً يشع في الوجه.. ومهابة تفـرض على الناس احترامه. فإذا كان أفراد المجتمع هكذا أعزاء.. فقد امتنع جانب الأمة وتأبت على الانقيـاد لغيـرهـا من الأمم الـطامعـة.. بـل إن أمـةً من الأمم لن تفكـر في احتوائها. وفي كيانها ضمانة الاستقلال: العزة المتأبية على الخضوع.

* * *

يقول الدكتور محمد سعاد جلال:

العزة هي: سلامة النفس من الضعف والمهانة، وامتناع جانبها من الاقتحام والتسلط.

وهي صفة فطرية غالباً منشؤها المعرفة بكرامة الإنسان، وترجيح وزن هذه الكرامة على المنافع المادية إذا قوبلت بها. وصاحبها إما أن يكون في مركز القوة من السلطة والبأس. أو مركز الضعف من الفقر وانعدام العصبية.

فإذا كان في مركز القوة: تعفف عن الصغار ومحقرات الأمور، ورفض المساومة على الشرف والكرامة.. وكل القيم الشريفة التي تنعكس على مرآتها كرامة الإنسان.. وبذل من دون ذلك كل سلطانه وبأسه.

وإن كان في مركز الضعف: استعصم بشرف الحق. وشرف الإنسان ورفض أن يستجيب لأسباب ضعفه. مهما يحاول الناس أن ينزلوه على حكمها.

واحتمل من دون ذلك كل المظالم والآلام التي تمثل في إحساسه هرماً يستوي على قمته ليرى عَبَدة المنافع في أسفله صغاراً.

وأعظم أسباب العزة: التربية الإسلامية. والعقيدة الإسلامية التي أقنعت العربي المسلم.. الذي كان يرقع ثوبه. ويخصف نعله. ويتبلغ بالثمرات الجافة.. أنه بالإسلام سيد الأرض ومَنْ عليها.

وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾[1] أجل لا يعلم المنافقون ذلك.. لأن باطنهم الخاوي من معاني الخير أفقدهم التمييز.. وحرمهم

---

(١) المنافقون: ٨.

القلبَ البصيرَ بعواقب الأمور. . في الوقت الذي يحقق المسلم ذاته بعزته المشتقة من إيمانه بربه وتوكله عليه. . وما يثمره ذلك من بصيرة نافذة إلى عمق الناس والأحداث.

وإنهم بهذه البصيرة لقادرون على تذوق أدق وأخفى ما في الدنيا من جمال روحي. . هو أغلى من الأرض ومَنْ عليها. . ومهما حاول المنافقون ستر خوائهم الروحي بشارات لها بريق خداع. فإنهم ساقطون في الدرك الأسفل في الدنيا قبل أن يحتويهم في الآخرة.

ساقطون. . في نظر أنفسهم على الأقل. .

(وكم من عزيز في رأي الناس هو في ذاته ذليل ذلة يعرفها هو من نفسه. بما يجد من رهبة أو رغبة. عندما يلقى من يرهبه أو يرجوه: من عدو ينافقه. أو رئيس يمالقه. أوصديق يحابيه).

هذه الصفحات

وهذه الصفحات التي نقدمها اليوم هي مجموعة من المواقف تتجلى فيها معاني العزة والإباء. . يحس فيها المؤمن كيف كانت العزة ثمرة من ثمرات الإيمان. . ومعلماً بارزاً من معالمه الكبرى. .

وبدونها لا يتم له إيمانه. .

وتأمل أن تكون عوناً للمؤمن على أن يتخلق بفضيلة العزة. . ليتم له إيمانه. . فيسعد به وطنه.

وتبقى مسؤولية المربين متجددة. . في لفت الأنظار إلى مثل هذه المواقف أخذاً للناشىء بها. وتدريباً له عليها:

(وإذا كان من يحتفظ بالعزة. ولا يصرف وجهه عن التواضع. هو الرجل الذي يرجى لنفع الأمة. ويستطيع أن يخوض في كل مجتمع. صافي الكرامة. أنيس الملتقى. شديد الثقة بنفسه. كان حقاً على من يتولى تربية الناشىء أن يتفقده في كل طور. حتى إذا رأى فيه خمولاً. وقلة احتراس من مواقع المهانة أيقظ فيه الشعور بالعزة والطموح إلى المقامات العلا. وإذا رأى فيه كبراً عاتياً، وتيهاً مسرفاً، خفف من

غلوائه، وساسه بالحكمة، حتى يتعلم أن المجد المؤثل لا يقوم إلا على دعائم العزة والتواضع)[1].

* * *

(١) من مقال للمرحوم الإمام: محمد الخضر حسين.

بسم الله الرحمن الرحيم

عزة المؤمن[1]

وإذا كان الإسلام دين الوفاء ودين الإخاء.. وإذا كان هو بحق دين المروءة والإخلاص.. فلأنه دين العزة الباعثة على ذلك وعلى أمثاله من فضائل الإنسان. هذا الإنسان الذي يستمد عزته من شريعة تحرر إرادته من التبعية لغير الله..

حتى في اللحظة التي يطيع فيها فرداً مثله. فإنما يطيعه التزاماً بأمر الله تعالى.. الذي أكرمه بدين يعمق فيه معنى الإباء بما شرع من آداب وسنَّ من سنن:

بالمساواة.. من غير نظر إلى نسب ولا نشب.

بالزكاة عند الفقر حقاً مكتسباً.. ومعلوماً.. بلا مَنّ ولا أذى.. بتحريم الربا الجانح بالنفوس إلى الهوان..

بسداد الدين عن المدين حقاً في عنق الدولة.. تحمي به سمعة الميت في قبره من القيل والقال.. بقدر ما تصون كرامة الورثة أيضاً! وذلك قوله ﷺ: «**أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم: فمن مات وعليه دين. ولم يترك وفاء. فعلينا قضاؤه**»[2].

فالمفروض في المسلم أنه عامل.. ليواجه بثمرة عمله مفاجآت المستقبل. فإذا تورط في دَيْن.. فعليه قضاؤه.. وقاية لنفسه من التبعية لغيره.. وإبقاء على مشاعر الاعتزاز بالله راسخة في كيانه..

---

(١) راجع هذا الموضوع في «الإسلام في عصر العلم» للمرحوم د. محمد الغمراوي.

(٢) رواه البخاري.

فإذا أعجزته الحيل.. وكانت الظروف أكبر من طاقته. فإن الإسلام لا يتخلى عنه.. بل يفرض له «معاشاً» فورياً.. لا يصون به البطون من الجوع فقط بل يحمي الكرامة من الضياع أيضاً.

إنَّ وادياً من الماس.. ومثله معه.. لأهون في تقدير المسلم من أن يبادل عليه بِذرَّة من كرامته..

وحتى تبقى مشاعر العزة حية متجددة.. شرع الحق تبارك وتعالى الأذان على مدار اليوم كله.. مفتتحاً بهذا الشعار الخالد:

الله أكـبر..

لينتزعك به من دوامة الحياة.. وقبل أن تستبد بك أطماع الغنى والجاه.. لتعلم دائماً أن الله أكبر من المال.. ومن الناس.. ومن المنصب.. فابق كريماً ولا تبع كرامتك.. ولا تساوم عليها في معترك العيش!

والمسلم بهذا المعنى هو ما صوّره الشاعر إقبال حين قال:

ليس يدنو الخوف منه أبدا ليس غير الله يخشى أحدا
لحنه في القلب ناراً أشعلا من قيود الزوج والولد خلا
معرض عما سوى الله الأحد يضع السكين في حلق الولد[1]

والمسلم هنا كهذا الصقر المحلق في الأجواء العالية.. يرسم للإباء صورة حية:

قلت للصقر وهو في الجو عال اهبط الأرض فالهواء جديب
قال لي الصقر في جناحي وعزمي وعنان السماء.. مرعى خصيب[2]!

إن الصقر يعلّم الإنسان معنى السمو.. ليعلو بهمته.. فوق الخنوع وجواذب الأرض..

وكل داء في سقوط الهمم!

---

(١) ديوان الأسرار والرموز / ٣٩.

(٢) محمد إقبال ديوان المثاني ص ٣٥، ترجمة عبد الوهاب عزام.

ملامح المنهج الإسلامي

وللإسلام منهجه الراشد في غرس فضيلة العزة في وجدان المسلم لتستقر وتستمر:

أ ـ فقد فرض الجهاد علينا ثورة دائمة.. لا نمكن بها عدواً من التحكم في رقابنا.

ب ـ بنى كثيراً من أحكامه على تأكيد عزة المؤمن فمنحه بذلك راحة الضمير من ألم الهوان.. بقدر ما فرض احترامه على من حوله.. فإذا ما اشتد الحرص على العزة قويت روح المقاومة في الأمة فتأبت على الاستسلام للغاصب.. وسلم لها دينها الذي يبقى معها دافعاً إلى التقدم والازدهار.

ومما ذهب إليه العلماء في هذا الباب:

إن المسافر يقبل هبة الماء.. ولا يتيمم.. إذ لا يُمْتَن بمقدار الوضوء عادة.

وفي نفس الوقت لا يُلزمه العلماء بقبول هبة الماء.. وأجازوا له التيمم.. إذا كان في هبة الماء مِنّة.. والمنة تورث شيئاً من الذلة[1].

وعن هذا المعنى السامي يقول إقبال:

الأرض ميدان البلابل للترنم والغناء
والقبة الزرقاء ميداني إلى غير انتهاء
أنا سائر بين الصخور وموطني عرش الهواء

---

(١) الفكرة للمرحوم الشيخ محمد الخضر حسين.

لا يبتنى الشاهين وكرا . . إن موطنه السماء!

وهو الإباء المانع حتى من الشكوى. والذي كان سمة بارزة للأباة الأعزاء يصونون به أنفسهم عن مواقف الاستجداء، وفي ذلك يقول أحدهم:

لست أشكو منك فالشكوى عذاب الأبرياء
وهي قيد ترسف العزة فيه والإباء
أنا لا أشكو ففي الشكوى انحناء
وأنا نبض عروقي كبرياء ـ والكبرياء لله وحده ـ

وحين شكا رجل لآخر فاقته قيل له: تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك؟!

وعندما أعد حاتم الطائي وليمة لأمراء العرب . . ذهب إلى البادية أعرابي فدعاه إلى وليمته ـ فرفض قائلاً :

لا أحمل مِنّةً من حاتم!!

هذه المنّة الذاهبة بعزة الإنسان بما تحمله من خيَلاء وتسلط . . والتي تذهب بآثار المعروف بين الناس على نحو ما روى عن ابن سيرين وقد سمع رجلا يحدث عن آخر بأنه فعل له كذا وكذا فقال:

أسكت فلا خير في المعروف إذا أُحصِي .

إن إحصاء المعروف يعني إحباط مضمونه الإجتماعي . . فهو دلالة على فرط إحساس المعطى بذاته وبجميله . . على صورة لا تسمح بالود والتآخي . . وسوف يكون رد الفعل في قلب الآخذ حقداً أن حرمته الأقدار من فرصة الإعطاء. بقدر ما يشكل نوعاً من التسلط يميت الإباء في صدور الآخذين . . وخير من هذا أن تكف يدك . . وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى﴾[1]

جـ ـ ردم منابع الذلة :

والإسلام ـ وهو شريعة العليم الخبير ـ يعلم أن الذلة قد تأتي من الإنسان . . ومن ثم يحمل الإنسان على ردمها . . فراراً من أوضارها .

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٣ .

١ ـ الخوف من الموت.
٢ ـ الخوف على الرزق.
٣ ـ الخوف من الغير.

أما الخوف من الموت فلا داعي له.. لأن الآجال بيد الله ﴿**فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**﴾[١].

وفيما يتعلق بالرزق ـ فلن تموت نفس حتى تستوفي رزقها المقدر لها..

وما على الإنسان إلا أن يطلبه بعزة النفس.

ونقرأ في هذا المعنى قوله تعالى:

﴿**وفي السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون**﴾[٢].

ولأهمية القضية يقسم سبحانه وتعالى على حقيقتها.. مؤكداً أن الرزق في السماء.. يعني في مقام أمين.. محفوظاً هناك بعيدا عن متناول العابثين به.. المدعين حق التصرف فيه.. وإذن.. فمن أذل نفسه من أجل الرزق يحصل عليه فهو آثم في حق ربه.

يقول ﷺ: «**من تضعضع لغني. لينال مما في يديه أسخط الله**»[٣].

إن لك رزقاً.. عند مالكه الحقيقي وهو الله سبحانه.. فاطلبه منه.. وإذا كان سبحانه قد أجرى الخير على أيدي عباده. فاطلبه ولكن بعزة النفس.. مع العلم بأن رزقك نفسه يطلبك أنت. ويسعى من ورائك.. مما يُطَامِن من إلحاحك في طلبه «**إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله**»[٤].

فإذا ارتفع المسلم إلى هذا المستوى.. كان موحداً حقاً.. توحيداً يحرره من التبعية لغيره.. وما تثمره هذه التبعية من هوان.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٦١.
(٢) سورة الذاريات، الآية: ٢٢، ٢٣.
(٣) رواه الطبراني.
(٤) رواه الطبراني.

يقول ابن القيم:

يـا مـن ألـوذ بـه فيمـا أؤمله ‏ ‏ ‏ ومـن أعـوذ بـه ممـا أحـاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ‏ ‏ ‏ ولا يهيضـون عظمـاً أنت جابـره

وإذن.. فليس هناك سبب للخوف من البشر العاجزين عن أن ينفعوك.. وعن أن يضروك.. إلا بما كتب الله لك أو عليك..

﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾(1).

د ـ التحذير من المسألة:

وقبل أن يذل السؤال أعناق الرجال.. فإن توجيهات الإسلام تصونك من الزلل.. بعداً بك عن مضاعفات المسألة.

إن الإسلام لا يسمح بالمسألة.. إلا في أضيق الحدود.. وطبق قواعد صارمة.

وعندما سأل حكيم بن حزام يوماً رسول الله ﷺ.. لفت نظره إلى خطورة هذا المسلك على إيمان المسلم..

وقد وعى حكيم رضي الله عنه الدرس.. وحرم على نفسه السؤال.. وبلغت حساسيته حداً حمله على رفض أن يأخذ حتى حقه ورعاً!. مما دعا أبو بكر إلى المناداة في الناس أن لحكيم حقاً. لكنه يأبى أن يأخذه!

وهذا بشر بن قبيصة بن الخازن يحكى تجربة من تجاربه في هذا المجال فيقول:

(تحمّلت حَمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها فقال: **«أقم حتى تأتينا الصدقة. فنأمر لك بها»**.

ثم قال: **«يا قبيصة: إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة:**

تحمّل حَمالة. فحلت له المسألة حتى يصيبها. ثم يمسك.

---

(1) سورة فاطر، الآية: ٢.

ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله. فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش. أو قال سداداً من عيش.

ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجى من قومه:

لقد أصابت فلان فاقة. فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش»[١].

فأنت ترى رجلاً حملته همته ليقف إلى جانب مسلم في محنته.. فدفع ثمن هذه الهمة ماله كله أو جُلّه..

فلما سأل الرسول ﷺ العوض. لم يخيب أمله.. لكنه عليه الصلاة والسلام يتخذها فرصة يضع فيها النقاط على الحروف فراراً بالمسلم من سوء استغلال السؤال بلا ضوابط. مما يؤدي بالإنسان إلى الهوان.

وقد ضيق الخناق في هذا المجال فلم يبح السؤال إلا في أضيق الحدود وبهذه الشروط الصارمة:

أن يشهد بأحقيته عدد لا يضيع الحق بينهم، ثم هم من أصحاب العقول الراجحة التي لا تخطيء الصواب عادة.. على أن يكونوا من قومه الواقفين على تطورات حياته..

وحتى إذا شهدوا بأحقيته فإن ذلك لا يعطيه حق السؤال بإطلاق. بل إنها الضرورة المقدرة بقدرها.. إلى أن يقف على قدميه مرة أخرى ليستأنف نشاطه من جديد.

وما كان للإسلام أن يشجعه ليحصل على ثروة بلا تعب ثم يسمح لكرامته أن تذهب في نفس الوقت.. بينما هي أغلى الثروتين!

وضياع الكرامة نتيجة لاستمراء هذا المسلك السهل. هو ما حذر منه الحديث بشدة في قوله ﷺ: «**لو يعلمون ما في المسألة ما مشى أحد إلى أحد يسأله**»[٢].

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والنسائي. والحمالة بفتح الحاء: الدية أو ما يتحمله للصلح بين المتخاصمين. والقوام: ما يقوم به حال الإنسان. والسداد: ما يسد العوز.

(٢)رواه النسائي والطبراني في الكبير.

والذين يمشون إليها مع هذا. فإنما يلتقطون الجمر كما أشار إلى ذلك حديث آخر.

إن المال يذهب ويجيء.. والعلم أيضاً يذهب ومن السهل أن يعود.

لكن الشرف إذا ذهب.. فمن العسير عليه أن يعود!

من أجل ذلك يوالي الرسول ﷺ تحذيره الشديد من المسألة يتجه به إلى من يتخذها حرفة: «**لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس في وجهه مُزعة لحم**»[1].

قال الخطابي رحمه الله:

يحتمل أن يكون المراد: يأتي ساقطاً لا قدر له. ولا جاه. أو يعذب في وجهه حتى يسقط لحمه. لمشاكلة العقوبة في موضع الجناية من الأعضاء. لكونه أذل وجهه بالسؤال[2].

ولما ضُرب ابن حنبل ضرباً لو وقع بالفيل لصرخ. تحمل في إباء. وحين عرض عليه المال قال: هذا أشد علي من السوط!!

إن الضرب القاسي.. وإن سال به الدم.. لكنه لا ينال من الكرامة المستقرة في القلب.

أما نظرة الإشفاق.. وامتداد اليد بالإحسان ـ فدونها الموت..

ومن هنا كان الحرص عليه حرصاً على الحياة ذاتها.. والأعزاء من الناس يجودون بحياتهم.. لتبقى كرامتهم..

ولقد باع أعرابي ناقته الأثيرة لديه تحت ضغط الحاجة ولما سئل في ذلك أنشد:

وقد تخرج الحاجات يا أم عامر كرائم من رب بهن ضنين

إنه يبيع رأس ماله بَيْد أنه لا يسأل..

وقد بلغت حساسيتهم هنا حداً كان سوط أحدهم يقع على الأرض فلا يطلب

---

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي، والمزعة بضم الميم: القطعة.

(٢) الترغيب والترهيب.

من زميله مناولته على تفاهة الطلب!!

(روى مسلم عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: «**ألا تبايعون رسول الله ﷺ؟**» فبسطنا أيدينا ـ وكنا حديثي عهد بالمبايعة ـ فقلنا قد بايعناك يا رسول الله فعلام نبايعك؟ قال: «**أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً. وتقيموا الصلوات الخمس. وتطيعوا الله**». وأسر كلمة خفية وهي «**ولا تسألوا الناس شيئاً**».

قال عبد الرحمن: فرأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه).

وربما اشتد احتياط العلماء فيما يتعلق بسؤال السلاطين فراراً من الضرر المضاعف والمترتب على التردد على أبوابهم. لما يفرضه من استسلام لا يبقى للمروءة بقية.

قال العتابي: (إذا طلبت حاجة إلى ذي سلطان. فأجمل في الطلب إليه. وإياك والإلحاح عليه. فإن إلحاحك يجرح عرضك. ويريق ماء وجهك. فلا تأخذ منه عوضاً لما يأخذ منك.

ولعل الإلحاح يجمع عليك إخلاق الوجه. وحرمان النجاح. فإنه ربما مل المطلوب إليه حتى يستخف بالطالب).

ومن توجيهات العلماء في هذا الباب ما قعدوه من قواعد تحدد صلة الرعية بالسلطان. حفاظاً على كرامة الإنسان: قالوا:

ينبغي على الرعية:

قلة الغَشيان لبابه.

وقلة الاستعانة به إلا بشيء يلزم أمره.

ودوام الهيبة له. وإن كان ذا رفق.

وترك الجرأة عليه وإن كان ذا لين.

وقلة السؤال وإن كان مجيباً.

والدعاء له إذا ظهر[1].

---

(١) إحياء علوم الدين.

من توجيهات النبوة

ـ وقد روى عنه ﷺ ما يؤكد هذا المعنى:

(عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«ليس من عمل يقرب من الجنة إلا أمرتكم به».

«ولا عمل يقرب من النار إلا وقد نهيتكم عنه».

«فلا يستبطئن أحد منكم رزقه: فإن جبريل ألقى في روعي: أن أحداً منكم لن يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه».

«فاتقوا الله أيها الناس وأجملوا في الطلب».

«فإن استبطأ أحد منكم رزقه فلا يطلبه بمعصية الله. فإن الله لا ينال فضله بمعصيته»[1].

أي أن رزقك آت لا ريب فيه..

وقد يتأخر قليلاً أو كثيراً وإذن.. فلا مانع من طلبه.. شريطة أن تكون متجملاً في هذا الطلب.. وإلا.. فإن الابتذال في السؤال.. وإن أكسبك قليلاً من المال.. إلا أنه سيكلفك من كرامتك ما لا يسترد أبداً!

وخير من هذا كله أن ترضى.. فإن القناعة كنز لا يفنى.. من حيث كانت لوناً من الاعتزاز بالنفس يقف بك في مقام أمين عالي الجبهة.. لا تحمل مِنَّة من أحد.

---

(١) رواه الحاكم.

من إنسانيات الرسول :

عن أبي هريرة قال: (دخلت على النبي ﷺ. فوجد لبناً في قدح فقال: «**أبا هر! الحق أهل الصفة فادعهم إلي**».

قال: فأتيتهم فدعوتهم. فأقبلوا. فاستأذنوا. فأذن لهم. فدخلوا)[1].

* * *

في محاولات فرض الهيبة على الناس.. يحاول بعض المسؤولين أن يضيئوا قاعات الاستقبال بالأضواء الخافتة.. الموزعة على جنبات الساحة الواسعة.. المتعددة الزوايا..

يجلل ذلك كله بصمت يلقى على الموقف ظلالاً من الخشوع.. والخوف.. فإذا دخل صاحب الحاجة من باب إلى باب.. ومن حجاب إلى حجاب.. أحس بالمسافة البعيدة تفصل بينه وبين المسؤول.. فلا يكاد يبين.. رهبة.. ثم ينوب عنه الطلب المسطور في البلاغ.

* * *

بل قد تفسد الهيبة المصطنعة تفكيره كهذا الذي رفض مبايعة «معاوية» رضي الله عنه.. فلما استدعاه.. ورأى الأبواب والحجاب.. قال لمعاوية من فرط الرهبة: السلام عليك يا رسول الله؟!! والقياس مع الفارق طبعاً.

* * *

ولكن القائد الذي لا يكذب أهله.. له مع الناس شأن آخر: إنه يبتدر أبا هريرة مداعباً: أبا هر..

وبهذه الدعابة يطوي المسافة بينه.. وبين رجاله:

فتذهب الوحشة.. ثم كون الإنس والمودة الجامعة بين القائد واتباعه.. على طريق الإصلاح.. تحدوهم آمال مشتركة.. وتمسك بهم في لحظات الخطر. أيضاً آلام مشتركة.

* * *

---

(١) رواه البخاري.

ليكون مع الأمة. بالكلمة الطيبة. . وها هو ذا القائد: ينزل من عليائه: ليكون مع الأمة. بالكلمة الطيبة. . والمشاركة الوجدانية. . والعملية. ليمنحها أطيب ما عنده. .

وسوف تعطيه أيضاً أطيب ما عندها:

سيظل دائماً في القمة. . ودائماً في سويداء القلوب.

يقول أحد الكُتَّاب :

(إنها القيادة التي تفيض رحمة وعناية بمن حولها:

يشتد بها الجوع. وتبدو اثاره على محياها. ويجنبها القليل مما أفاض الله تعالى عليهم. . فلا ينسيها الجوع الذي تعاني منه. والألم الذي يعتصرها حاجة من حولها. فتبدأ بكفايتها. قبل أن تبدأ بنفسها).

وهو درس يجب أن نعيه جيداً:

إن الرسول ﷺ يذوق مرارة الجوع. .

فإذا يسر الله تعالى كان ذلك القلب الكبير. . الذي يسع هموم الناس جميعاً:

تهرع إليه آمال الملايين. . فتجد اللقمة المشبعة. . أو الكلمة المقنعة. . وهي في سراء الحياة وضرائها معه على الخط:

إذا تكون كريهة يدعوهم إليها. . فإنهم لسباقون إلى الجهاد. .

لا يسألون أخاهم حين يندبهم.

في النائبات على ما قالِ برهانـا .

وهم تحت رايته ورهن إشارته. . بما منحهم من لدنه. . وما أفاء عليهم من رده ورفده. .

لقد مد يده للفراخ الزاغبة. ليحمي لحمها الطري من الطيور الجارحة:

من التجار الجشعين. .

والأغنياء المستغلين. .

فحماهم من الجوع. . ومن الخوف. . ومن التبعية. .

فكانوا جنداً للحق. . عليه يحيون. . وعليه يموتون. . .

وإذا استبدت بالأمة أزمة اقتصادية لم يكن هناك مجال للسخط. . ولا للشكوى. .

فالعيون الساهرة مفتحة. . تراقب. .

والقلوب الكبيرة يقظى ترصد آمال الأمة وآلامها. .

فإذا كان الرخاء. . فبها . .

وإن كانت الأخرى فما أصبر أمة تعيش تحت رائد يعيش معها. . لا فوقها. .
وهذا عمر رضي الله عنه درس عملي لهذه التربية النبوية:

جاءته قافلة من مصر المعطاء. . دائماً. . محملة بالسمن. . واللحم. . والطعام. . والكساء. فأبى أن يأكل منها. . ووزعها. ثم أخذ رئيس القافلة إلى بيته الذي لم يكن فيه إلا: الخبز اليابس. . والزيت. . قال له:

أطعمك مما أطعم. . ولن آكل حتى يشبع الناس.

* * *

على سنة الرسول ﷺ:

حفل التراث الإسلامي بصور نادرة في هذا الباب كان الواجدون فيها عند حسن الظن بهم:

فلم تكن القضية عندهم أن يجودوا بمال يمنع الفقر. . بل كانت بالدرجة الأولى مروءة تمنع الذلة أن تأخذ سبيلها إلى قلوب الفاقدين.

في نفس الوقت ـ وبنفس القوة ـ يحفل التاريخ بألوان من التعفف المانع من السؤال . . حتى إذا فرضته الضرورة القصوى لم يكن المسلم ليتخلى عن هذه العفة أبداً اعتزازاً بها وإزدراء بكل شاردة دنيوية لا تساوي إزاءها شيئاً .

يقول المتنبي

ومراد النفوس أصغر من ... أن نتعادى فيه أو نتفانى
غير أن الفتى يلاقي المنايا ... كالحات ولا يلاقي الهوانا

ويقول آخر:

لا تطلب الرزق في الدنيا بمنقصة ... فالرزق بالذل خير منه حرمان
المال يمضي وتبقى بعده أبداً ... على الفتى منه أوساخ وأدران
ما للفتى في الغنى من ذلة.. عوض ... وليس في المال للأعراض أثمان

معنى العزة على لسان الأعزاء

أنشد أحدهم:

أقسم بالله: لرضخ[1] النوى ... وشرب ماء القلب[2] المالحة
أعز للإنسان من حرصه ... ومن سؤال الأوجه الكالحة
فاستعن باليأس تكن ذا غنى ... مغتبطاً بالصفقة الرابحة
اليأس عز والتقى تعفف ... ورغبة النفس لها فاضحة
من كانت الدنيا به برة ... فإنها يوماً له ذابحة!!

* * *

إنها صيحة رجل: لا يغريه المال. ولا يغره منصب. ولا الدنيا برياضها وحياضها.. تثنيه عن طلب المعالي.. وهو واحد من زمرة الأعزاء الذين إذا لم تسعفهم الظروف بما يحقق عزتهم فإن الموت حينئذ يكون امنيتهم!!

يقول قائلهم:

متى تصل العطاش إلى ارتواء ... إذا استقت البحار من الركايا
ومن يثني الأصاغر عن مراد ... وقد جلس الأكابر في الزوايا
وإنَّ ترفُّع الوضعاء يوماً ... على الرفعاء من إحدى البلايا
إذا استوت الأسافل والأعالي ... فقد طابت منادمة المنايا

* * *

قال بعض رواة الأدب:

وقف علينا أعرابي ونحن برملة اللّوء فقال:

رحم الله امرأ لم تمجج أذناه كلامي. وقدم معذرة من سوء مقامي. فإن البلاد مجدبة. والحال مسغبة. والحياء زاجر. يمنع من كلامكم. والفقر عاذر يدعو إلى

---

(١) أي دق النوى.
(٢) الآبار.

إخباركم. والدعاء أحد الصدقتين. فرحم الله امرأ أمر بخير أو دعا بخير.

فقلت: ممن أنت يرحمك الله!

فقال: اللهم غفراً.. سوء الاكتساب يمنع من الانتساب!

وهذا الحياء المانع من السؤال الصريح الملحف، قد يحمل صاحبه أحياناً على الطلب في جنح الليل صيانة لماء وجهه الذي لا تبين ملامحه في الظلمة الساترة!.

حدث المسجدي قال: جاء رجل إلى ابن إسحاق الكسائي ليلاً فقال: ما جاء بك؟ قال: ركبني دين، فقال الكسائي: وكم هو؟ قال: أربعمائة درهم. فأخرج الكسائي كيساً فأعطاه. فلما رجع بكى. فقال له أهله: ما يبكيك؟ فقال: بكائي اني لم أبحث عن حاله التي ألجأته إلى الذل! أي أن واجب الكسائي لم ينته بإعطاء هذا المبلغ الكبير.. وبهذه السرعة.. بل إن واجبه الأكبر والذي فاته هو تقصيره في متابعة أمور حياته حتى لا يقف مثل هذا الموقف!

إن دوره الوقائي سابق لدوره العلاجي... الذي جاء على ضخامته بعد فوات الأوان!

وفي إطار الحفاظ على عزة المؤمن حتى لا تورطه الحاجة في مواقف الذل.. وصيانة لماء وجهه لحظة السؤال نقرأ في حياة علي رضي الله عنه هذه القصة: وقف بين يديه أعرابي فقال:

إن لي إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك. فإن أنت قضيتها حمدت الله وشكرتك.

وإن أنت لم تقضها حمدت الله تعالى وعذرتك.

فقال علي رضي الله عنه:

«خطّ حاجتك على الأرض. فإني أرى الضر عليك.

فكتب الأعرابي على الأرض: إني فقير.

فقال علي: يا قنبر.. ادفع إليه حلتي الفلانية.

فلما أخذها مثل بين يديه فقال:

كسوتني حلة تبلى محاسنها فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إن الثناء ليجي ذكر صاحبه كالغيث يجي نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في عرف بدأت به فكل عبد سيُجزى بالذي فعلا

فقال علي:

يا قنبر، اعطه خمسين ديناراً.

أما الحلة فلمسألتك.

وأما الدنانير فلأدبك!

إن نبل الرجل في رجائه لا يساويه إلا نبل علي في تساميه بمشاعر الرجل حين أعفاه أولاً من تحريك فمه بالسؤال..

وقد كانت هذه عادته رضي الله عنه صيانة لماء الوجه.

وقد روي عنه أنه كان يقول لأصحابه:

من كانت له إلي منكم حاجة فليرفعها في كتاب لأصون وجوهكم عن المسألة..

وتظهر أبعاد نبل سيدنا علي رضي الله عنه في تصنيفه للهبات: حيث كانت إجابة الحاجة هدية عينية لا تحرج كرامة الرجل. ولم تكن هي الخمسين ديناراً.. وهي صورة مالية أليق أن تكون جائزة على موهبته الشعرية!!

وقد أخذ بنوه بهذا الأدب العالي المقدِّر لإنسانية الإنسان:

قيل للحسين رضي الله عنه: إن فلاناً مدين لرجل قاس. يغلظ له القول. ويسيء معاملته من أجل الدَّين.

فلو رأيت أن تريحه منه؟!

وبعد قليل. أقبل المدين. وقبل أن يطلب من الحسين شيئاً أمر الحسين غلامه بإحضار المبلغ الذي يسد الدين.

فقيل للحسين:

هل انتظرت حتى يسألك؟ فلعله قد قضاه من غيرك.

فقال الإمام الحسين:

لو انتظرت حتى يسألني.. لكان قد بذل لي من ماء وجهه ما لا يكفي فيه مال!!

إن شرخاً في بناء الكرامة لا يجبر بمال!

ولقد كان رفيق الحسين يرجو راحة المدين من الدائن بدفع هذا المال..

ولم يقف الإمام الحسين عند هذا السطح.. بل أنه أراح المدين من عذاب الضمير.. ووقاه من شر مستطير حين أنقذ كرامته من براثن غريم ثقيل. وحماه قبل ذلك من ذل السؤال.

وهذه الهمة العالية في تقدير الكرامة الإنسانية وقفت ببعض الاعلام موقف التضحية حيث أخذوا نفوسهم بعزائم الأمور وقضاء الحاجات الضخمة.. وما رضوا لها أن تشغل بقضاء حوائج تافهة لا تليق بمكانتهم:

جاء في صيد الخاطر لابن الجوزي:

قيل لأحد فحول الرجال: لنا إليك حويجة (تصغير حاجة) أي جئناك لتقضيها لنا.. فأبى وقال: اطلبوا لها رجيلاً!!

وبعد:

فلك أن (تعجب من أمة دينها العزة.. ثم تهمله لتصير إلى ما صار إليه المسلمون اليوم).

وحاول أن توقظ الرقود قائلاً:

إذا لم يكن الإيمان مصدر العزة.. فماذا يكون؟!

وإذا لم يكن المسلم به عزيزاً.. فمن يكون؟!

كان جلال الدين الرومي يهتف بالمسلم قائلاً:

(يا من.. بيده: العقل. والحكمة. والمقدرة. كيف تبيع نفسك رخيصة؟

. . . . لا محل للمساومة . . فقد تمت الصفقة . وتحقق البيع :

إن الله اشتراك . وخلصك من المساومات والمقاولات . إلى آخر الأبد . والشيء لا يباع مرتين) !

ثم يهيب بالمسلم أن يبحث له عن مشتر يعرف قيمته . ولا يرضى إلا بأكرم الأكرمين . قائلاً :

(ابحث لك ـ إن كنت باحثاً ـ عن مشتر يطلبك . ويبحث عنك . والذي منه بدايتك . وإليه نهايتك) .

أما هؤلاء الذين يضعون كرامتهم في مواطىء أقدام الأغنياء فيسألون ويلحون فأولئك أشباه الرجال :

(إن هؤلاء ليسوا رجالاً : إنما هم صور الرجال .

هؤلاء الذين يحكم عليهم الخبز . وقد قتلت الشهوات فيهم الإنسانية) .

* * *

وحديث اليوم يد تمتد للإنسان الغارق في خضم الأطماع . . الباذل نفسه العزيزة . مع كل درهم يستجديه . . فيخلط بالطين مادته الطاهرة فلا تصلح بها حياة .

فما يزال الإنسان يستجدي . . ويستمرىء موقف الآخذ حتى يصير في النهاية هيكلاً عظمياً بعد أن أذهب بالسؤال حياءه وماءه .

* * *

وما زلت أذكر من قصص العزة ما فعلته القروية العفيفة الشريفة :

لقد غاب زوجها في سفر . . وليلة الموسم لم تكن تملك ثمن الطعام . . فأوقدت ناراً تحت إناء ما فيه إلا الماء موهمة الصغار والجار أنها مثلهم . .

ولو أنها سألت جيرانها لتسابقوا إليها . . لكنها أحست بوطأة السؤال على ضمير الحرة . . فرضيت بالقناعة التي جعلت حياتها على اختلاف فصولها . . ربيعاً دائماً .

هكذا فعل الفقراء فماذا عن الأغنياء؟

كان هناك أغنياء يرتفعون إلى مستوى الإيمان:

فلم يكتفوا بمجرد الانفاق من غير سؤال.. حفاظاً على عزة الآخذ.. بل كان ذلك شرعتهم التي يعلمونها الناس.. وأساساً من أسس التعامل كما أشار الحديث الشريف: ونذكر من هؤلاء: الإمام الحسين رضي الله عنه:

قيل له: إن فلاناً مدين لرجل قاس. يغلظ له القول. ويسيء معاملته. من أجل الدين. فلو رأيت أن تريحه منه؟

وبعد قليل: أقبل المدين. وقبل أن يطلب من الحسين شيئاً. أمر الحسين غلامه بإحضار المبلغ الذي يسد الدين.

فقال رجل للحسين:

هلا انتظرت حتى يسألك.. فلعله قد قضاه من غيرك؟

فقال الإمام:

لو انتظرت حتى يسألني. لكان قد بذل لي من ماء وجهه ما لا يكفي فيه مال. وهو بهذا يمضي على سنة أبيه رضي الله عنه والذي كان يوصي صاحب الحاجة أن يكتبها له في كتاب. صيانة للوجوه عن السؤال.

* * *

وهكذا كانت الأمة في عصرها الذهبي:

لا تسرع فقط إلى البذل إطعاماً من الجوع..

ولكنها وقبل ذلك تحسن البذل حفاظاً على الكرامة التي يبددها السؤال.

* * *

وليت المحتاجين يحرصون على كرامتهم.. لأن في ذلك مصلحتهم وإن كانوا لا يشعرون: إن الإلحاح يجرح الشخصية.. ويريق ماء الوجه.. وسوف يستخف بك من تسأله.. فلا يحقق غرضك..

ومن ناحية أخرى فاستمراء السؤال تعطيل لملكات الإنسان القادر بالعمل على امتلاك مثل ما يطلبه من غيره..

وإذا كـان الحق تعالى سيسـأل الغني عن مالـه: فيم أنفقـه. . فسـوف يسـأل سبحانه: الفقير عن كرامته. . كيف ضيعها. .

بل إن السؤال عن الكرامة المضيعة أشـد وطأة من حيث كـان الإنسان إنسـاناً بكرامته. . لا بجسمه وثروته.

* * *

إكـــرام الضيـــف

(عن أبي شريح العدوي أنه قال:

سمعت أذناي. وأبصرت عيناي حين تكلم رسول الله ﷺ فقال:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته».

قالوا: وما جائزته يا رسول الله؟

«قال: يومه وليلته».

«والضيافة ثلاثة أيام. فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه».

وقال: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»**.

وفي رواية: **«ولا يحل لرجل مسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه»**.

قالوا: يا رسول الله وكيف يؤثمه؟

قال: **«يقيم عنده ولا شيء عنده يقريه به»**[1].

* * *

تعتبر الإنسانية ـ في مفهوم الإسلام ـ أسرة كبرى تنتظم البشر جميعاً: فلكل إنسان ـ موافق في العقيدة أو مخالف ـ حقه في الرعاية باسم هذا النسب المشترك.

فإذا ما ضرب في الأرض فكل بيت هو بيته.. وكل طعام فيه.. هو طعامه.. مروءة وشرعاً.

---

(١) صحيح مسلم ج ١٢/ ٣٠ وما بعدها.

فالإنسان أعز من الدنيا كلها. . وكرامته في الميـزان أثقل من كـل نعيم وأبقى من كل لقب.

وإذا كانت المذاهب الأرضية تكلف الفرد بمهمة. ثم تدفع له الثمن مقدماً. . فإن المسلم يتلقى التوجيـه. . ويدفـع هو الثمن من جيبـه مالاً. . ومن قلبـه عواطف نبيلة أصيلة.

إن أهواء النفوس بـاسم الإسلام معـزولة عن قيـادة حركـة المسلم اليوميـة. . لتتفرد الأخوة العامة بإدارة الدفة. . في ظل من أخوة عامة تتعامل مع البشـر مدفـوعة بعالمية الإسلام ورحابته. .

من أجـل ذلك يـطلق الحديث: (. . فليكـرم ضيفـه). . أي ضيـف. . مهمـا كان. معبراً بذلك عن أوفى ما عرفت الحياة من صور النبل والإخاء.

❊ ❊ ❊

معنى الجائزة

وإذ يغـادر المـرء داره. . يضرب في الأرض. . فـإن ميزان حيـاته ليختـل. . والإحساس بالوحشة يحتويه بعد أن زايل داره وقراره.

ونحن مطالبون بحسن استقباله. بما يذهب بهذه الوحشة. بالتفنن في تكريمه في اليوم الأول. على الأقل.

هذا التكريم الذي يبذله المضيف. . لا تحت عنوان: الهبة. . أو الصدقـة. . أو التطوع. .

وإنما هو: جائزته. . بكل ما يشي به اللفظ من تقدير. .

من ناحية الطعام:

يكرمه المضيف غاية الإكرام بما يقدمه إليه من أفضل الطعام.

ولا بأس أن يؤثره على نفسه وولده.

ومن الناحية الأدبية:

اشعار الضيف بأنه نزل سهـلاً. ولقى أهلاً. وأن هنـاك تغييراً حـدث في نظام البيت. . من أجله بالذات.

وتجنب عقـاب المخطىء من الأولاد لحـظة وجوده. . حتى لا نكسـر خـاطـر الضيف بعقاب وصخب في البيت ينعكس عليه خجلاً حين يسيء تأويل ما حـدث. وأنه بسببه.

إن لقمة الطعـام مهما كـانت دسامتهـا لا تغني عن حسن الاستقبال. . تـوفيراً لجو نفسي ينبسط به قلب الضيف. .

وإنـك لتحس أثـر العواطف النبيلة في قلب الضيف العـربي المسلم عنـدمـا يستقر به النوى في بيت ويرى بعينه ويسمع بأذنه ما رواه البخاري بسنـده عن محمد ابن زياد قال :

(أدركت السلف، وإنهم ليكونون في المنزل الواحد بأهاليهم، فربما نزل على بعضهم الضيف، وقدر أحدهم على النار. فيأخذها صاحب الضيف لضيفه.

فيفقد القدر صاحبها فيقول: من أخذ القدر؟. فيقول صـاحب الضيف: نحن أخذناها لضيفنا.

فيقول صاحب القدر: بارك الله لكم فيها)!!

وأنت واجد في سماحة صاحب القدر. . المعبر عنها بهذا الدعاء المبـارك. . ما يربو في قيمته على القدر وما فيها!!

ثم تحس في نفس اللحظة بمشاعر الغبطة لدى الضيف المأخوذ بما يسمع. . ويرى.

* * *

أهمية تكريم الضيف

لقد جعل الرسول ﷺ إكرام الضيف من مقتضيات إيمانه بالله واليوم الآخر.

ومعنى ذلك: نقصان إيمان المسلم لو لم يقم بواجبه هنـا. وكما ينبغي. وإذا برزت أهمية الفـرائض في حس المؤمن. . فإن الحـديث يضيف إليها أدبـاً إسلاميـاً يشكل غيابه شرخاً في عقيدته. . تماماً كمن قصر في أداء الصوم أو الصلاة.

وفي تواضع المؤمن. . بسط ﷺ رداءه لضيف له ـ فجلس عليها. . وتلك قمة في التكريم لا يرتقي إليها إلا العظماء من الرجال.

* * *

قانون الضيافة

إذا كـان للضيف في عنق المضيف حق إكرامـه . . فإن للمضيف حقـاً لدى الضيف . .

وقد زاوج الحديث بين الحقين. . فتكاملا. . ولم يبـغ أحدهمـا على الآخر: وقد علمنا حق الضيف وأهميته آنفاً . .

فما هو حق المضيف هنا إذن؟

من المعـروف أن وصـول الضيف يفـرض على المضيف تغييـراً في أسلوب حياته اليومية:

يختل موعد النوم. . وموعد الأكل أيضاً. .

التـوجيهات الصـارمة المـوجهة إلى كـل من في البيت فلا حـركـة ولا صـوت يحرج الوافد الجديد. .

ربما انعكس ذلك على مذاكرة الأولاد. . لا سيما إذا كان البيت ضيقاً. . فإذا أضفنا إلى ذلك تعطل مصالح المضيف. . تبين لنا الحكمة النبوية القاضيـة بتحديـد ثلاثة أيام يمكن أن يتحملها بلا تبرم.

وإذن. . فواجب الضيف أن يرحل بعد انقضائها. .

وإذا عقد الحياء لسان صاحب البيت فـلا يقدر على إحـراجه. . فـإن الشارع الحكيم يتكفل بذلك الإعلام:

فلا يحل له أن يقيم إقامة تستنفد صبر صاحب البيت. . وتفرض عليه مع أهله شيئاً من الضيق. . لاسيما إذا نفد الزاد.

وفي محـاولة إغـرائه بـالرحيـل يحيطه علمـاً بأن إطعـامـه بعـد الثـلاث يعتبـر صدقة. . ومن شأن المسلم أن لا يضع نفسه موضعاً يذله.

ومن مواضع الهوان أن تكون محل شفقة الآخرين. .

وأذكـر أن جنديـاً أصيب بالعمى في الحـرب. . فاستـأجر محـلاً لبيع الحلوى على الطريق العام. .

وتقدم إليه تلميذ صغير فاشترى منه بما ثمنه خمسون قرشاً. .

ولكن التلميذ أعطاه جنيهـاً إشفاقـاً عليه. . وإسهـاماً منـه في تدعيم حيـاته. . ولكن الجنـدي قال لـه: لو أعـطيتني خمسة وعشـرين. . لكان أهـون عليّ من هذه الزيادة التي تشفق بها عليّ!!

❊ ❊ ❊

ذكر الإمام النووي في شرح الحديث:

(قال العلماء معناه: الاهتمام بـه في اليوم والليلة. واتحـافه بمـا يمكن من بر وألطاف.

وأما في اليوم الثاني والثالث. فيطعمه ما تيسر ولا يزيد. على عادته. وأمـا ما كان بعد الثلاثة فهو صدقة ومعروف. إن شاء فعل. وإن شاء ترك.

قالوا: وقوله ﷺ: «**لا يحـل له أن يقيم عنـده حتى يؤثمه**» معنـاه: لا يحل لـه للضيف أن يقيم عنده بعد الثلاث من غير استدعاء من المضيف.

أما إذا استدعاه وطلب زيادة إقامته. أو علم. أو ظن أنـه لا يكره إقـامته. فـلا بأس بالزيادة)[1].

الحكم إذا ضاع حق الضيف

في رواية (قلنا يا رسول الله : إنك تبعثنا . فننزل بقوم فلا يقروننا . فما ترى ؟ فقال لنا رسول الله ﷺ :

«**إذا نـزلتم بقوم فـأمـروا لكم بمـا ينبغي للضيف. . فـاقبلوا. فـإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم**»).

وقد فسر العلماء المراد بذلك فقالوا: إنما ذلك للمضطر.

---

(١) صحيح مسلم ج ١٢/ ٣٠ وما بعدها.

وحتى في لحظة الاضطرار لا ينبغي الأخذ بالقوة. . لكن المراد: إظهار لؤم هؤلاء الباخلين للناس تنديداً بهم.

* * *

معنى الالتزام بأحكام الإسلام

إن هذا التوجيه الإسلامي بشأن إكرام الضيف ليقوي رابطة الأخوة بين أفراد الأمة.

وإذا حرص على توفر قدر من الرعاية للضيف. . فهو كذلك حريص وبنفس النسبة على أن تراعى مشاعر المضيف وظروفه. .

إنها فرصة يكتسب كل منهما صديقاً جديداً. .

فلا ينبغي أن يضيعها الضيف بالمكث الطويل. .

ولا يضيعها صاحب البيت بالندم فيخسر المال. . والرجال!

ومن هنا يؤكد الحديث على ضرورة إمساك اللسان بعد الضيافة من الإثنين على سواء:

فليركز منهما على الإيجابيات. . ويتناسى السلبيات. . لتبقى الذكرى عطرة في وجدان كل من الرجلين. .

ولهذا يقول ﷺ عقب ذلك مباشرة:

«**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**» ذلك بأن المناسبة مظنة لفضول الكلام. . ومن ثم ينبه إلى ذلك. .

قال الإمام علي رضي الله عنه:

جميع الخير كله في ثلاث خصال:

النظر. والسكوت. والكلام:

فكل نظر ليس فيه اعتبار. فهو سهو.

وكل سكوت ليس فيه فكر. . فهو غفلة.

وكل كلام ليس فيه ذكر. . فهو لغو.

فطوبى لمن كان نظره عبراً. . وسكوته فكراً. . وكلامه ذكراً.

* * *

أثر التواضع
في بناء المجتمع

في تحديد معنى التواضع يقول ابن المبارك:

(رأس التواضع: أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا. حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك فضل عليه.

وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في الدنيا.. حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل)[1].

ومعنى ذلك: أن للتواضع أثره الاجتماعي المبارك.. حين تعايش به من هو أقل منك مالاً أو جاهاً أو قوة..

وتعايش به أيضاً من هو أوفى منك نصيباً في ذلك.. حين تترفع عنه ـ لا عليه ـ بمعنى أنك تعامله معاملة الند للند.. مستبعداً من الحساب ما زاد عليك فيه من مال أو ولد..

وإذا عزل الكبر أصحابه بعيداً فلم يعد لهم في قلب مكانة.. ولا مكان.. فإن المتواضع يعيش في صميم أمته بقلبه المتفتح.. ويده الممدودة في كل الجهات تحمل غصن الزيتون.

فإذا رأى المتواضع (من هو أكبر سناً منه تواضع له. وقال:

سبقني إلى الإسلام.

---

(١) إحياء علوم الدين ١٩٤٢.

وإذا رأى من هو أصغر سناً. تواضع له. وقال:

سبقته إلى الذنوب.

وإذا رأى من هو مثله عده أخاً. فكيف يحسن تكبر المرء على أخيه بينما لا يخلو أحد من منفعة ما:

(فلا يجب استحقار أحد. لأن العود المنبوذ ربما انتفع به فحك الرجل به أذنه)[1].

* * *

أهمية التواضع

أ ـ في القرآن الكريم:

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا﴾[2].

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾[3].

ويقول عز وجل:

﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾[4].

* * *

وفي الآيات الكريمة تحريض على التخلق بفضيلة التواضع لما لها من آثار في حياة الفرد وحياة الجماعة:

---

(١) روضة العقلاء ٦٢.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٨٨.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

فمن الناحية الفردية:

ينخرط المسلم المتواضع في صفوف الأمة التي يصير منسجماً معها. حاضراً في وجدانها ووعيها بمشاعره المرتبطة بها. المزاملة لها.

وعن هذا التلاحم تنشأ خلال الاتحاد والتعاون على البر والتقوى وما يترتب عنيهما من رخاء وتقدم يصل بالأمة إلى عزها. فلا يطمع فيها طامع.

وعلى هذا الأساس فإن خلق التواضع يأخذ مكانه في طليعة الأخلاق لإجتماعية النبيلة:

وأحسن مقرونين في عين ناصر جلالة قدر في خمول تواضع

وإذا كان الإنسان بفطرته يبتغي لنفسه العزة بين الناس.. فإن شرف الغاية يفرض عليه أن يطلبها من سبيلها الشريف وهو التواضع..

وما أتعس المتكبرين الطالبين رفعتهم عن طريق الأنفة التي لا تزيدهم في عين الناس إلا نفوراً وخساراً.. وسوف يبقى المتواضع ملء السمع والبصر بما قدمت يداه من مودة في قلوب الخلق.. تثمر في النهاية مهابة تطل على الناس من ملامح وجهك:

(ومن عمر فؤاده بمودتك امتلأت عينه بمهابتك)

* * *

في السنة المطهرة

وعجيب أن هذا الإنسان: يغتر بما حصل من جاه أو مال.. بينما تؤذيه ذبابة شاردة.. وتقتله نسمة باردة!

ووقاية له من ذلك المصير الوبيل فإن السنة المطهرة تأخذ بيده فتلزمه لتواضع: يقول ﷺ:

«**إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد. ولا يبغي أحد على أحد**».

وتبدو أهمية التواضع من تصدير الحديث بقوله:

«**إن الله أوحى إليَّ . .**» .

ومعروف أن التواضع من جملة ما أوحاه الله تعالى إلى نبيه ﷺ . . لكن التنصيص عليه إثبات لمزيته في باب الفضائل . . والحديث من ناحية أخرى تثبيت لدعائم التواضع في حنايا النفس الإنسانية بالنهي عن معوقاته وهي :

أ ـ النهي عن التفاخر بما يملكه المسلم من فضائل . لما فيه من عدوان على مشاعر الآخرين .

ب ـ ثم النهي عن إيذاء الآخرين فراراً من وصمة العدوان حين لا يكون هنا مبرر لهذا العدوان .

* * *

جزاء التواضع

يقول ﷺ :

«**ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا . وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**»[1] .

وهكذا التواضع :

(يرفع المرء قدراً . ويعصم له خطراً . ويزيده نبلاً) .

(فهو في نفسه صغير . وفي أعين الناس كبير) بينما المتكبر :

(فهو في نفسه كبير . وفي أعين الناس صغير) .

ومعنى ذلك : أن إحساس المتواضع بضآلته وضآلة ما يقدمه للناس يحثه على مزيد من العمل لإرضائهم . . إلى جانب ما يثمره ذلك من تودد إليهم . . فيألفهم ويألفونه . .

(ولو لم يكن في التواضع خصلة تحمله إلا أن المرء كلما كثر تواضعه ازداد بذلك رفعة لكان الواجب عليه ألا يتزيا إلَّا به)[2] .

* * *

(١) رواه مسلم .

(٢) روضة العقلاء لأبي حاتم ابن حبان ٥٩ .

في مجال التطبيق

تحول التواضع إلى فضيلة عملية يمارسها المؤمنون على أوفى ما تكون بالإضافة إلى شدة توقيهم من الوقوع في الكبر الممقوت.

أ ـ في السنة المطهرة:

كان ﷺ هو القدوة الحسنة في هذا الباب:

«إنْ كانت الأمة إماء المدينة لتأخذ بيد النبي ﷺ . فتنطلق به حيث تشاء»[1] .

وهكذا: يمسك التواضع والحياء معاً يده الشريفة حتى لا ينكسر خاطر جارية مملوكة تحس في ظلال وده من معاني العزة ما لا يحسه الأحرار اليوم!

فإذا عاد إلى البيت (كان في مهنة أهله).

إنَّ الشخصية الهشة الفارغة من معاني الخير تحاول الاستعلاء على الضعاف لتصنع من العظمة الكاذبة مجداً زائفاً . . على حساب كرامة الغير . .

أما الشخصية الإيمانية فإن إحساسها بالعزة لا يحوجها إلى مثل هذا التعالي وهذا الإدعاء ـ فما تملكه من عناصر الخير يجعلها ممتلئة ريانة بالعزة التي تفيضها على الآخرين فإذا هم معها .

* * *

في مدرسة الرسول ﷺ :

وإذا كانت صياغة الرجال على الخلق الفاضل إحدى مقاييس عظمة الزعيم فقد كان ﷺ في القمة بما أخذ به أصحابه من خلق التواضع:

كان عمر رضي الله عنه ـ في عام الرمادة ـ ينفخ تحت القدور حتى يخرج الدخان من خلال لحيته!

فإذا زايل ركن الدار حيث إعداد الطعام إلى ساحة المجتمع الفسيح تألق خلق التواضع في مواقف خلدها الدهر:

(خرج عمر رضي الله عنه في يوم حار واضعاً ـ رداءه على رأسه . فمر به غلام على حمار فقال له:

---

(١)رواه البخاري .

يا غلام احملني معك. فوثب الغلام عن الحمار وقال:

اركب يا أمير المؤمنين. فقال: لا.. اركبْ أنت. وأركب أنا خلفك.

تريد تحملني على المكان الوطيء. وتركب أنت على الموضع الخشن؟

فركب خلف الغلام. فدخل المدينة وهو خلفه والناس ينظرون إليه)[1].

* * *

ولم يكن عمر وحده على الطريق:

فقد استمر أبو بكر بعد الخلافة يحلب للجيران منائحهم.. ولما نادى رجل على سلمان ـ ولم يكن يعرف أنه سلمان أمير المدائن ـ وطلب منه أن يحمل متاعه يحسبه حمالاً.. حمل سلمان المتاع حتى بعد أن عرفه الرجل واعتذر إليه. وقال سلمان له:

(لا. حتى أبلغ منزلك)!!

* * *

تواضع العابدين

إذا لزم التواضع كل مسلم بحكم إسلامه.. فإنه بالنسبة للعابدين ألزم: من حيث أقامهم الله مناراً للسائرين:

قال مالك بن دينار:

لو أن منادياً نادى بباب المسجد: ليخرج شركم رجلاً.

والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب. إلا رجل بفضل قوة أو سعي)

وقد كان أحدهم يهضم نفسه إلى حد أنه يذهب للحج. ثم ينصرف عن عرفه.. فيخشى أن يكون الله تعالى حرم العباد من الرحمة بسببه.

* * *

---

(١) المنتخب ٤/٤١٧.

أمـا بعـــد:

فقد هشم «جبلة بن الآيهم» أنف حاج داس على طرف ثوبه أثناء طوافه.. ثم حمله الخوف من القصاص على الهرب.. وأضاع الكبر إسلامه الوليد..

أما هذه القمم العالية.. فقد خلد التواضـع ذكرهـا.. وبقيت على مر الـزمان آيـة بينة تهـدي الحائـرين إلى ما يحققـه الخلق الحسن من كرامـة الدنيـا. وكـرامـة الآخرة.

❊ ❊ ❊

الإنســان في أفقه العالي

إذا كنا مأمورين بالأكل في قوله تعالى

﴿كلوا من ثمره إذا أثمر . .﴾[1] .

فإننا مأمورون بالنظر إلى ما نأكل :

﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إنَّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾[2] .

ومعنى ذلك أن إنسانية الإنسان لا ينبغي أن تقف به عند حد اللقمة يسد بها جوعته . . ولكنه مطالب بتجاوز هذا الأفق . . ليقرأ ما وراء السطور . . ببصيرة تتأمل نعمة الله في طعام كان بالأمس القريب . . خضرة . . وماء . .

وإذا به اليوم . . إنسان . . يسمع . . ويرى . . ويحس . .

إنها النظرة التي تتجاوز لذة الطعام . . إلى الكيفية التي صار بها غذاء وشفاء . . ليكتمل حظ الإنسان من الطاقة والحركة . . وحظه أيضاً من ثواب الله . . على قدر انتفاعه بالعبرة . . التي يقوي بها إيمانه يتنزل بها رضوان ربه سبحانه وتعالى . .

وهو معنى الأمر بالنظر في قوله تعالى :

﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صباً * ثم شققنا الأرض شقاً * فأنبتنا فيها حبًّا * وعنباً وقضباً * وزيتوناً ونخلاً * وحدائق غُلباً * وفاكهة وأبًّا * متاعاً لكم ولأنعامكم﴾[3] .

---

(١) سورة الأنعام، الآية : ١٤١ .

(٢) سورة الأنعام، الآية : ٩٩ .

(٣) سورة عبس، الآيات : ٢٤ ـ ٣٢ .

إنها ـ إذن ـ النظرة التي تنقلك من الكون إلى المكون سبحانه وتعالى. . من الخضرة. إلى من أشاعها في الأوراق والفروع. . حياة. . وبهجة للناظرين. . وهذا هو مفرق الطريق بين أفق الحيوان. . وأفق الإنسان:

إن الحيوان ليحني رأسه طلباً لطعامه . . لا ينظر إلى أعلى . .

بينما الإنسان له شأن آخر :

﴿كلوا وارعوا أنعامكم إنَّ في ذلك لآيات لأولى النهى﴾[1] .

فالأنعام (ترعى) سائحة في أرض الله الواسعة بلا ضابط. . أو هدف. . لكن الإنسان (يأكل) ملتزماً بضوابط الأكل. . محكوماً بالغاية الكبرى التي من أجلها وجد.

يقول المرحوم الأستاذ البهي الخولي في هذا المقام:

(هذه الأهواء. . هي مجموعة الخواطر والشهوات التي لا يمكن أن تورد على قلبك حركة ربانية. . أو نفحة سماوية نورانية. . .

. . . . فهي وجوارح الحيوان سيان:

مرعاهما واحد. والأرض مائدتهما جميعاً. أو مذودهما إنْ أردت منطق الفطرة الصحيح. . ولأمر ما يخاطبنا جل شأنه بقوله:

﴿متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾[2] بعد قوله :

﴿والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها﴾[3] . .

ويقول تعالى:

﴿وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم. . . .﴾[4] .

---

(١) سورة طه، الآية: ٥٤ .

(٢) سورة عبس، الآية: ٣٢ .

(٣) سورة النازعات، الآيتين: ٣٠ ـ ٣١ .

(٤) سورة طه، الآيتين: ٥٣ ـ ٥٤ .

هي مائدة واحدة لجوارح الإنسان والحيوان . أو مزود واحد أو سمّها ما شئت . بحيث لا تعدو الحقيقة .

فمـن أغنتـه هذه الحقيقـة رجونـاه أن لا يغضب علينا . وعـرضنا عليـه أن في السمـاء أرزاقـاً غيــر أرزاق الأرض . يفيضهـا الله على القلوب . لا على المعــدات والجيوب .

قد أعدها الله للممتازين من عباده بالإيمان . لا للذين يتمتعون ويـأكلون . كما تأكل الأنعام . فعليه أن يـرفع بصـره من مذود الأرض إلى مـائدة السمـاء إذا أراد أن يدعى لنفسه امتيازاً على البقر والشاء .

وأنت تقرأ قوله تعالى :

﴿**يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً . .**﴾ وتقرأ بعده بقليل :
﴿**يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم**﴾ .

فكم من فرق شاسع بين القولين؟ ! !

هناك فرق بين «يا أيها الناس» و «يا أيها الذين آمنوا» .

وأمد بعيد بين «كلوا مما في الأرض» و «كلوا من طيبات ما رزقناكم» .

إذ يسند هذا الرزق إلى ذاته سبحانه . .

ومـا أحكم التناسب حين يـأمر النـاس جميعاً أن يـأكلوا ممـا في الأرض . ثم يخص المؤمنين بالطيبات مما رزقهم من فضله .

* * *

إن إحساس المؤمن بخطره وأهمية دوره يفرض عليه سمتاً من لـون آخر يـزداد به إيمانه . . وبالتالي يزداد إحساسه بمسؤوليته على نحو يسيـر به إلى مـا يرجـوه من كمال . .

وهذا ما يميزه عن الكافـر الذي رضي لنفسـه أن يظل مـع الحيوان يـرعى في أرض الله الواسعة :

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿**إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار**

والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوىً لهم﴾[1] .

أي إن الكفار يأكلون «غافلين عن عواقبهم» كما يقول أبو السعود في تفسيره للآية الكريمة.. وإذا كانت السكين تنتظر الحيوان في النهاية.. فإن الكافر يسلم نفسه بهذا النهج إلى النار طعمة لها!

بيد أن وقت المؤمن لا يتسع لمثل هذا الترف..

إنه مشغول بمعالي الأمور..

ومن ثم .. فائدته من البساطة بحيث تقيم الأود.. ولا تحول بينه وبين ما ينشد من فضل..

إنها مائدة لا تستجد قيمتها من بريق الملاعق.. ووفرة الطعام..

إنما تستمدها من فيض المعاني الكريمة.. تحف بها من كل جانب..

فليس هو بالذي يستجيب للوحش الحيواني الكامن في الإنسان.. يقول دائماً: هل من مزيد؟! لكنه يوسع صدره.. وتتسع مائدته أيضاً للمحتاجين.. يشاركونه لقمة مباركة.. تدعم الأخوة. وتوثق عرى الترابط بين الواجدين والفاقدين.. وعلى لسانه ذلك الهاتف.. الذي أعلنه رجل أجهده البذل من فرط إحساسه بآدمية الإنسان.. فخاطب من يهزأ من ضعفه وهزاله قائلاً:

أتهزأ مني ان سمنت وأن ترى ... بجسمي مس الجوع.. والجوع جاهد
لأني امرؤ عف إنائي شركة ... وأنت امرؤ عاف إناؤك واحد
أوزع جسمي في جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد

إن الشاعر هنا ليغتر بما حصل من عواطف خير جذبت إليه المسكين وابن السبيل.. فأكلوا معه.. وعاش بسببه خلق كثير.

وفي نفس الوقت يزري بما يملكه الآخر المدل المزهو بما يملك من طعام لا يأكله إلا الباخلون.. المترهلون.. وبهذا المقياس يجب أن يوزن الرجال.. وعلى قدر ما يملكون من فضائل النفس.. لا بمقدار ما يحصلون من أسباب المتاع.

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٢ .

(لا يظن الإنسان أنه امتاز من الحيوان لأنه أكل الشعير مخبوزاً وظل الآخر يأكله غير مخبوز . . ولأنه أكل الفول مطبوخاً وبقي الآخر يأكله غير مطبوخ . .

ولأنه استتر بالثياب . . ونام على الفراش . . وبقي الحيوان على ما خلقه الله !

لماذا يغالط الإنسان نفسه - إذاً - كل هذه المغالطة؟

ولماذا يعتبر الترقي في خدمة البدن ترقيا؟

لماذا يعتبر نفسه أنه تقدم لأنه أكل «الجاتو» بعد أن كان يأكل الرغيف فقط؟ وأكل اللحم أصنافاً مختلفة ما سمعنا بها . . بعد أن كان يأكله مسلوقاً أو مشوياً فحسب؟ وأكل بالشوكة بعد أن كان يأكل بأصابعه؟

ربما وافقنا على تسمية هذه المظاهر تقد ماً . . لكنه تقدم غير كاف .

لأنه استدبار للمعاني الإنسانية الكريمة . . بقدر ما هو إقبال على كل ما ينمي في الإنسان جانبه الحيواني . . المعطل لملكات التمييز فيه .

وماذا يبقى للإنسان إذا حرم من زاده الروحي المعنوي في قلبه . . وماتت في صدره معاني المروءة . . والوفاء . . والشجاعة . . مثلاً ؟

إن القامة الفارغة لن تغني عن ذلك كله شيئاً :

وبقدر ما يحوز الإنسان من ألوان الترف . . يخسر على الجانب الآخر جزءاً من ميراث الإنسان المؤمن . . والذي كون به الإنسان شيئاً مذكوراً . .

والجسد المترهل كما يقعد بصاحبه عن قطع المسافات البعيدة . . يقعد به أيضاً عن طلب معالي الأمور . .

وهذا الذي تزحم جثته الفضاء . . محدودَ القيمة . . محدود العمر أيضاً ولو عاش مئات السنين :

يموت . . فلا يحس بموته أحد . . فلا أحد هناك أسير فضله وجوده .

أما ذلك النحيل الذي براه الكرم . . وأثقلته هموم الآخرين . . فإن جسمه موزع في جسوم كثيرة . . تحس به . . فهو الحر الذي يموت . . فيموت به خلق كثير . . على ما يقول الشاعر :

لعمــرك مـا الــرزيـة فقــد مـال ولا فــرس يـمــوت ولا بـعـيــر
ولــكـن الــرزيــة فـقــد حــر يمــوت بمـوتـه خــلق كـثـير

وما أجمل ذلك البيان النبوي الجامع.. حين أرسل لنسائه يسأل عما بقي من شاة كانت في بيته ليطعم ضيفاً.. فلما جاءه الرد:

«لم يبق منها إلا الكتف» قال: بقيت كلها.. إلا الكتف!!

أي أن ما ذهب منها طعاماً ليتيم.. أو ضيف.. هو الباقي.. والذي بقي منها لا وجود له.. حتى يأخذ طريقه إلى فم الجوعان.

وتلك سمة بارزة في بناء الشخصية المسلمة.. التي يرتفع إحساسها بحاجة الآخرين إلى مستوى الإحساس بالحاجة الخاصة..

ومن هنا يأكل المسلم في معيٍّ واحد.. عفيفاً.. قانعاً.. ذاكراً نعمة الله عليه..

بينما يأكل الكافر في سبعة أمعاء.. شرهاً.. مذهولاً عن العواقب..

كما أشار إلى ذلك ﷺ في حديث شريف..

وما أجمل أن يظل المسلم في أفقه العالي.. عزيزاً كريماً كما أراد له ربه سبحانه وتعالى.. الذي نوه بهذه العزة.. وهذه الرتبة العالية حتى يظل المسلم محتفظاً بتوازنه فوقها.. وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾[1].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

عندما يكون الخادم
سيداً في بيته

تمهيـــد

إذا اعتنى الإسلام بالأمـة أفـراداً وجمـاعـات بمـا شـرع من آداب. وقعـد من قواعد. . فهو أشد عناية بـالضعفاء الـذين لا يستطيعـون حيلة. ولا يهتدون سبيـلاً. وأضعف الضعفاء ذلك الخادم الذي ارتبطت حياته بحياة مخدومه. . ذلك بأن الناس ـ دونه ـ في مواقعهم إذا أصابهم البغي هم ينتصرون:

فإذا كنت موظفاً ووقع عليك ظلم. نهضت تدافـع عن نفسك. . ومن ورائـك رأي عام من زملائك يشدون من أزرك. . في حمى لائحة تنظم العـلاقة بينـك وبين رئيسك. . ويبقى بعد ذلك كله: خط الدفـاع الأخير: رفـع الأمر إلى القضـاء. . إذا عز الدواء!

* * *

تأمل ذلك. . ثم قارنه بموقف خادمة صغيرة. . وحيدة. . تخـدم أسرة مكـونه من سبعة أفراد. .

فـإذا هي قصرت في القيـام بمهامهـا ـ ولا بد من التقصيـر ـ فسـوف تتعـرض للضرب. . وسوف تصرخ. . ولكن صراخهـا سيذوب في دوامـة الرهبـة المسكته. . بلا نصير ولا ولي.

وهذا ما حدث بالفعل في بيت من بيوت «بني مقرن»:

يروي أبو علي «سويد بن مقرن» رضي الله عنه قال:

(لقـد رأيتني سابـع سبعة من «بني مقـرن» ما لنـا خـادم إلا واحـدة. لـطمهـا أصغرنا.

فأمر رسول الله ﷺ أن نعتقها)[1].

وانظر كيف تجرأ الأصغر على ضربها وتصور ما يمكن أن يفعله الأكبر؟. مع خادمة اعترف واحد من «أسيادها» بالظلم الواقع عليها في قوله (ما لنا إلا واحدة). أي وكان لا بد من ثانية.. وثالثة تخدم هذا العدد الكبير.

* * *

حقوق الخادم

حكم رسول الله ﷺ بعتق الخادمة. وكان حكمه لطمة على وجه الأسرة أشد من لطمة صغيرها المعتدي.. وكانت في نفس الوقت مغالاة بإنسانية الخادمة.. حتى لا يقتلها الامتهان.

ثم كانت في النهاية لفتة قوية للأمة فتحت أبصارها على ما للخدم[2] من حقوق فصلتها السنة تفصيلاً في ناحيتيها: الأدبية والمادية:

* * *

الحقوق الأدبية

إن المصلحة الشخصية ماضية بحسن معاملة الخدم وإكرامهم قبل أن تكون أوامر شرعية:

فلو حرص المخدوم على كسب ثقة الخادم ومحبته.. فسوف يرتد إليه الإحسان وفرةً في الإنتاج.. وعليه مزيد من حب خادمه الذي يمنحه ولاءه..

لكن ثقة الخادم بالمخدوم لا تتحقق فقط بالراتب المعلوم!

لكنها بالدرجة الأولى وليدة الإحساس بالكرامة الإنسانية عن طريق شعوره بأنه عضو في المؤسسة التي يتفانى في خدمتها..

وعلى رب الأسرة أن يسعى لهذه الثقة سعيها. إذا كان راغباً في صلاح البال.. لأن عرائس الأماني لا تتحقق إلا لمن دفع مهرها الغالي..

والمهر الغالي هنا:

---

(١) رواه مسلم.

(٢) نريد بالخدم المعنى الواسع الشامل لمن كان مملوكاً وغيره.

شعور الخادم بأنه منك.. وأنت منه.. وأن اختلاف المواقع مسألة تنظيمية فرضها اختلاف المواهب. التي كان في اختلافها اتساق خطو الحياة.. وحين يحس الخادم بأن حاجته إليك لا تقل عن حاجتك إليه. فسوف يكون عند حسن ظنك دائماً. مطيعاً أميناً وفياً.

ونقرأ في هذا قوله ﷺ:

«إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فلم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين. أو أكلة أو أكلتين. فإنه ولي علاجه»[1].

وفي رواية: **«ثم جاء به وقد ولي حره ودخانه فليقعده معه وليأكل»**.

* * *

لقد أحضر الخادم الطعام من السوق.

ثم تحمل مسؤولية إعداده ليكون غذاء شهياً.

ولا شك أن رائحة الشواء أسالت لعابه.

ومن حقه أن يأكل مما صنعت يداه. ورأت عيناه.

وهذه حاجة معدته.

لكنه مستعد أن يتنازل عن حقه في الطعام. مقابل أن ينال حظه من الكرامة! بل إن حاجته إلى الإكرام تفوق حاجته إلى الطعام!

وذلك يكون: بإجلاسه معك على نفس المائدة.. ليأكل من نفس الغذاء.. وفي ذات اللحظة.. حيث يبرز معنى المشاركة التي تدعم الثقة بينكما. ولو أنك أكلت وحدك.. ثم خلفت من ورائك من الغذاء أصنافاً..

فإن ذلك لا يعوض فقدان الإحساس بأنه منك.. وأنت منه..

* * *

بل إجلاس الخادم إلى جانب مخدومه حق مقرر كما يفهم من **قوله: (.. فليقعده معه..)**.

---

(١) رواه الشيخان.

ولا يعدل عن هذا الحق إلا إذا كان الطعـام قليلاً. وحينئـذ فليناولـه بيده على قدر كمية الطعام. . وذلك حقه الأدنى.

لقد كان «الرأسمالي الهنـدوكي» يرمي للفقيـر بالفتـات. . ثم لا يجرؤ الفقيـر على تنـاوله حتى يبتعـد السيد ويغـادر المكان! لكن الإسـلام بهذا التكـريم العـالي ينشىء في قلب العامل إحساساً يحمله على الجد في العمل. حين يعتقد بأنه شريكه في ثمرته.

وبذلك نحميه من التراخي. . بقدر ما نحميـه من السرقـة سراً. . لأنـه يأخـذ حقه بالشرع. . علانية.

* * *

إن الـدول الأجنبية لتـزهو حين تـدعو إلى تكـريم العامـل بإعـطائـه الحـوافـز المجزية. . ثم بإفساح المجال أمامه ليكون عضواً في مجلس الإدارة.

لكنها لن تصعد أبداً إلى تلك القمة التي بوأها إيـاه الإسلام حين جعلت منـه عضواً في مجلس العائلة:

أخاً للصغير. . وابناً للكبير.

وإنه ليمارس عمله في بيت لا يحس فيه بغربة. . حيث تنبت مشاعـر الانتماء العضوي إلى أسرة تلبي حاجاته كلها:

حاجته إلى الطعام. . وحاجته إلى الإكرام.

* * *

الحقوق المادية

وفيما يتعلق بحقوق الخادم المادية. . فهي مؤسسة على حقوقه الأدبية ومشتقة منها. بمعنى أنها رمز لتكريمه كإنسان يجمعنا به قاسم مشترك هو: الإنسانية. .

وتتلخص هذه الحقوق فيما يلي:

أ ـ تكليفه من الأعمال بما يطيق.

ب ـ فإذا كان ولا بد من تكليفه بعمل شاق. . فلنساعده في إنجازه.

جـ ـ على أن يراعى حقه في الراحة الدورية. والإجازة المرضية.

د ـ إذا حدث تقصير في إنجاز مهمة فيجب أن تراعى إنسانيته بحيث يكون يكون العقاب تأديباً لا تعذيباً.

هـ ـ يأكل مما يأكل أهل البيت ويشرب مما يشربون.

و ـ ويلبس أيضاً مما يلبسون.

* * *

حدود العمل

ونقرأ في ذلك قوله ﷺ:

«هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم. فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل. وليلبسه ما يلبس. ولا يكلفه من العمل ما يغلبه. فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه»(١)

رأى رجل سلمان الفارسي يعجن فقال له: يا أبا عبد الله ما هذا؟ فقال بعثنا الخادم في شغل فكرهنا أن نجمع عليه عملين.

* * *

الراحة الدورية

عن عبد الله الرومي قال:

كان عثمان رضي الله عنه يلي وضوء الليل بنفسه فقيل:

لو أمرت بعض الخدم فكفوك؟ قال: لا.. (إن الليل لهم يستريحون فيه)(٢). إن الراحة استجمام يستعيد به الخادم نشاطه. ويجدد طاقته. ليستأنف العمل من جديد.. وإلا.. فمن لا راحة له. لا عمل له.

* * *

الإجازة المرضية

روى البخاري عن ثابت بن أنس رضي الله عنه قال:

كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ. فمرض. فأتاه النبي ﷺ يعوده. فقعد عند

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) الكنز ٥/٤٨.

رأسه فقال لـه: «أسلم». فنظر إلى أبيـه وهو عنـده فقال لـه: أطع أبـا القاسم ﷺ. فأسلم.

فحرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**».

فالخادم هنا يمرض.. فينتقل إلى بيته ليكـون تحت رعايـة أسرتـه إلى أن يبرأ من علته.

ويذهب إليه المخدوم بنفسه تقديراً له. ومن شأن هذه المبادرة الـطيبة الـواقفة بالخادم والمخدوم على مبدأ الإنسانية أن تجعل من عودة الخـادم إلى بيت مخدومـه أملاً يسعده أن يتحقق ليعود إلى منزله الثاني.

* * *

العقاب ورعاية شعور الخادم

إذا وقع تقصير من الخادم فالمطلوب أولاً: هو العفو..

قال ﷺ:

«**إن أحسنوا فاقبلوا. وإن أساءوا فاعفوا. وإن غلبوكم فبيعوا**»[1].

ومعنى الحـديث: استبعاد الضـرب ابتداء.. والتمكين لخلق العفـو ليستوعب الموقف الحرج..

* * *

وقد يسرف الخادم في العصيان.. وحينئذ فلا يسقط حقـه في العفو.. ولكن إل أمد محدود:

(قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه:

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال:

يا رسول الله: كم تعفو عن الخادم. فصمت.

فأعاد عليه الكلام فصمت.

---

(١) رواه البزار.

فلما كان في الثالثة قال: **«في كل يوم سبعين مرة»**[1].

وربمـا جاز لنـا أن نفهم من هذا العـدد رغبته ﷺ في تحكيم العقـل واستبعاد الانتقام.. فإن استقام فيها.. وإلا فآخر الدواء البيع.

«ولا تعذبوا خلق الله»[2].

* * *

دفع السيئة بالحسنة

وقد وصل سلفنا الصالح إلى القمة في تحمل عصيان الخدم..

كان للإمام زين العابدين خادم.

فرفع هذا الخادم شاة فكسر رجلها.

فسأله: لما فعلت هكذا؟

فقال: لأثير غضبك!!

فقال له زين العابدين:

وأنا سأُغْضب من علّمك ـ يعني الشيطان ـ ثم قال له:

«اذهب فأنت حر لوجه الله».

وإذا خسر زين العابدين خادمه كمعاون في البيت.. وخسر ثمنه لـو باعـه في السـوق.. فإنـه كسبه كصـديق فرض عليـه احترامـه بهذا الـدرس البليغ.. وكسب الإسلام موقفاً أبلغ من ألف خطبة!!

* * *

الضــرب

لكن ذلك لا ينفي حق المخدوم في ضرب خادمه في ظروف خـاصة.. على أن يراعى:

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) من حديث رواه الترمذي.

فلما كان في الثالثة قال: «**في كل يوم سبعين مرة**»[١].

وربما جاز لنا أن نفهم من هذا العدد رغبته ﷺ في تحكيم العقل واستبعاد الانتقام.. فإن استقام فيها.. وإلا فآخر الدواء البيع.

«**ولا تعذبوا خلق الله**»[٢].

* * *

دفع السيئة بالحسنة

وقد وصل سلفنا الصالح إلى القمة في تحمل عصيان الخدم..

كان للإمام زين العابدين خادم.

فرفع هذا الخادم شاة فكسر رجلها.

فسأله: لما فعلت هكذا؟

فقال: لأثير غضبك!!

فقال له زين العابدين:

وأنا سأُغْضب من علّمك ـ يعني الشيطان ـ ثم قال له:

«اذهب فأنت حر لوجه الله».

وإذا خسر زين العابدين خادمه كمعاون في البيت.. وخسر ثمنه لو باعه في السوق.. فإنه كسبه كصديق فرض عليه احترامه بهذا الدرس البليغ.. وكسب الإسلام موقفاً أبلغ من ألف خطبة!!

* * *

الضـرب

لكن ذلك لا ينفي حق المخدوم في ضرب خادمه في ظروف خاصة.. على أن يراعى:

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) من حديث رواه الترمذي.

١ ـ تجنب الوجه. لما رواه مسلم:

(نهى رسول الله ﷺ عن الضرب في الوجه. وعن الوسم في الوجه).

٢ ـ أن يتجاوز المخدوم لحظة الغضب ليعاقب خادمه بعد انحسار طوفانه. .

ثم ليكون عدد الضربات محدوداً. .

كتب عمر بن عبد العزيز إلى أحد عماله:

لا تعاقب رجلاً عند غضبك عليه، بل احبسه حتى يسكن غضبك.

فإن سكن فأخرجه فعاقبه على قدر ذنبه. ولا تجاوز به خمسة عشر سوطاً.

* * *

فإذا أخل المخدوم بواجباته وأساء استخدام صلاحياته فإن الإسلام يفرض عليه عتق خادمه لو كان مملوكاً. . فراراً بالخادم من مكان تمتهن فيه آدميته. . إلى أرض الله الواسعة. . ثم انتزاعاً لنعمة لم يقدرها المخدوم قدرها:

عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال:

كنت أضرب غلاماً لي بالسوط. فسمعت صوتاً من خلفي «اعلم أبا مسعود».

فلم أفهم الصوت من الغضب.

فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ.

فإذا هو يقول:

«اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام».

فقلت: لا أضرب مملوكاً بعده أبدا.

وفي رواية: فسقط السوط من يدي هيبة.

وفي رواية: فقلت يا رسول الله هو حر لوجه الله تعالى.

فقال: **«أما لو لم تفعل للفحتك النار»**[1].

---

(١) رواه مسلم.

المشاركة في الطعام والكسوة

مهم أن يأخذ الخادم حقه في الطعام والشراب. والكسوة. .

وأهم منه أن يتم ذلك في إطار من احترامه وتقديره. وإشعاره بأنه فرد من أفراد البيت كما أسلفنا.

إن خادماً يأكل من بقايا الطعام. . ومخلفات «الأسياد» لن تكون في كيانه نية التفاني في خدمة بيت أمات في صدره الإحساس بآدميته وانتمائه إليه. .

روي أن علياً كرم الله وجهه أعطى غلامه دراهم ليشتري بها ثوبين متفاوتي القيمة.

فلما أحضرهما أعطاه أرقهما نسيجاً وأغلاهما ثمناً.

وأبقى لنفسه الآخر وقال له:

أنت أحق مني بأجودهما. لأنك شاب تميل نفسك للتجمل أما أنا فيكفيني هذا.

ونؤكد هنا أن مخدوماً يقف من خادمه ذلك الموقف النبيل سوف يحمل الخادم على أن يقف أيضاً ما يليق به من تفان في خدمة سيد البيت.

* * *

وفي هذه المعاملة الطيبة كان يتنافس المتنافسون من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم:

فقد رووا أن عبد الرحمن بن عوف كان إذا مشى بين خدمه لا يميزه أحد منهم. لأنه لا يتقدمهم في السير. . ويلبس من نفس ما يلبسون. وإذا فاته إعجاب الناس بمشهده المختال. . لو تقدمهم. . فما فاته حب هؤلاء الخدم الذين رأوا فيه إنسانيتهم مقدرة تقديراً.

* * *

ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة

عن عائشة رضي الله عنها قالت:

ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده ، ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله .

وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله تعالى . فينتقم لله تعالى[1].

* * *

لقد نزه ﷺ يده عن أن تلحق بأحد أذى . . وإذا كان لديه فضل قوة لا يعتدي بها على امرأة ضعيفة . . أو خادم فرد . .

بيد أنه يصرفها فيما رصدت له وهو: الجهاد في سبيل الله . والدفاع عن حرماته .

* * *

ولم يكن يكتفي بإمساك يده عن هؤلاء فقط . . وإنما كانت له خطوة إيجابية أخرى تمثلت في حسن معاملته للخدم . . إلى الحد الذي رفع فيه الكلفة بينه وبينهم . . وعايشهم معايشة الأخوة الكرام . . لا الخدم المستعبدين .

* * *

وبعــــد

فقد رأى عمر رجلاً يسحب شاة برجلها ليذبحها فقال له :

(ويلك . . قدها إلى الموت قوداً جميلاً) .

وإذا احتفظ الإسلام للحيوان بحقه في الشفقة حتى وهو يقاد للموت . . فأجدر بالإنسان أن ينال حقه في التكريم . . الذي شرفه به خالق الإنسان في قوله تعالى :

﴿**ولقد كرّمنا بني آدم . .**﴾ .

---

(١) رواه مسلم .

همة.. ترمي إلى بعيد

إذا عزمت على رحلة فحسبتها سفراً قاصداً هيناً.. فسوف لا تستنفر لها كل قواك.. وبالتالي.. فلو فاجأتك مصاعب الطريق. فسوف تضعف أمام متاعب لم تستعد لها..

أما إذا رتبت أمورك ابتداء: على أنَّ السفر طويل. والزاد قليل.. فإنك ستحشد للرحلة كل ما تملك من قدرات تواجه بها مشكلات أنت مهيأ لملاقاتها:

﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾(١).

* * *

وطبق هذا القانون النفيس قال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك.. وتساءل الرسول متعجباً:

«**أومخرجي هم؟**» قال: نعم.

وبدت ملامح الرحلة الصعبة منذ الخطوة الأولى، باعثة كل مواهب الرسول ﷺ لتأخذ من اليوم وضع الاستعداد للمستقبل العظيم.

* * *

من توجيهات الرسول

وعلى هذا الأساس جاءت توجيهاته ﷺ باعثة الهمم من مراقدها لتنطلق بلا تردد.. وذلك قوله:

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٥.

«إن الله تعالى يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفسافها»(١).

وها هو ذا يدفع المسلمين بكلتا يديه نحو الآمال البعيدة اللائقة بمسلم ينقل خطاه على الثرى.. بينما همته معلقة بالثريا.

«إذا سألتم الله تعالى فسلوه الفردوس. فإنه سر الجنة. يقول الرجل منكم الداعية لراعيه: عليك بسر الوادي.. فإنه امرعه. وأعشبه»(٢).

أي إذا كنتم في معترك الحياة الدنيا تطلبون الأصلح.. فأجدر بكم فيما يتعلق بالآخرة أن تطلبوا الأعلى.

وهكذا.. لا يكتفي ﷺ باليسير من الآمال.. وإنما يستنهض عزائم الرجال لتمضي إلى أقصى ما تستطيع..

فإن وصلت فذلك فضله تعالى.. وإلا.. فلن تحرم الخير على نحو ما.. ولذلك قالوا:

صوب إلى الأغصان.. إن أردت الجذع:

أي سدد همتك نحو القمة العالية ابتداء.. فإن وصلت فبها. وإن لم تصل، فعلى الأقل ستحقق مبتغاك القريب.

* * *

سأل أحد الأئمة ولده. وكان ذكياً.

أية غاية تطلب في حياتك يا بني؟

وأي رجل من العظماء تحب أن تكونه؟

فأجابه:

أحب أن أكون مثلك!

فقال: ويحك يا بني!!

---

(١) الطبراني في الكبير عن الحسن بن علي رضي الله عنه.

(٢) الطبراني في الكبير عن العرباض رضي الله عنه.

لقد سقطت همتك. فلتبك عليها البواكي.

لقد قدرت لنفسي يا بني في مبدأ نشأتي أن أكون كعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. فما زلت أكد وأكد وأكدح. حتى بلغت المنزلة التي تراها. وبيني وبين علي ما تعلم من الفرق البعيد.

فهل يسرك وقد طلبت منزلتي أن يكون ما بينك وبيني من المدى.. مثل ما بيني وبين الإمام؟!

* * *

وعلى هذا المنوال.. يربي الإسلام الرجال..

وإذا استوى ملايين البشر في أنهم جميعاً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.

وإذا اشرأبت أعناق شباب إلى مثلها الأعلى:

فكان.. ممثلاً مشهوراً.. أو لاعب كرة ممتاز..

فإن هناك طرازاً فريداً من الشباب يتجاوزون هذا المستوى ليُحلقوا في الأجواء العالية:

كل له غرض يسعى ليدركه — والحر يجعل إدراك العلا قبلا

* * *

وإنَّ أحدهم ليمحض نشاطه كله للترقي.. راضياً بالكفاف جاعلاً من الإعتزاز سلم صعوده إلى المعالي.. رافضاً مسالك الخضوع مهما أزينت وأخذت زخرفها ولو فوت ذلك عليه نعيم الدنيا.

وقالوا توصل بالخضوع إلى الغنى — وما علموا أن الخضوع هو الفقر
وبيني وبين المال بابان حرما — على الغنى: نفسي الأبية والدهر

* * *

والمهم أن تسلم الشخصية من الهوان.. وما ضرها بعد ذلك شيء:

يهون علينا أن تصاب جسومنا — وتسلم أعراض لنا وعقول

فإذا بيت النفس قانعة فقد بقي رأس المال كاملاً غير منقوص:

إن الغنـي هــو الغـني بـنفســه　　ولـو أنه عـاري المنـاكب حـافي
مـا كل مـا فـوق البسيـطة كـافيـاً　　فـإذا اقتنعت فبعض شيء كـافي

* * *

الإنسان حيث يضع نفسه

ولا تنبت الهمة العالية من فراغ . .

لقد تلقى الصحابة رضوان الله عليهم تـوجيهاتـه ﷺ بأنفس وثـابة إلى معـالي الأمور . . صالحة للإثمار . .

وكان هو يرعاها . . ويمهد لها سبيل الوصول إلى الكمال . .

سمع ﷺ شاعراً يقول:

بلغنـا السماء مجـدنـا وجـدودنـا　　وإنـا لنرجـو فـوق ذلـك مـظهـرا

فأُعجب به ﷺ وسأله:

«**فأين المظهر؟**».

قال: الجنة يا رسول الله . .

فقال ﷺ: «**الجنة إن شاء الله**».

لقد سعد ﷺ حين رأى نفساً أبية آخذة في الصعود . .

وحتى تكمل سعادته فقد ا ستوضح الرجل سائلاً عن الغاية الكبـرى . . والتي يمد إليها بصره . . فلما علم أنها الجنة . . تمت سعادته ﷺ . . ثم بشره بها .

* * *

مثل من التاريخ

كـان كافـور الأخشيدي وصـاحبـه عبـدين مملوكين . فجيء بهمـا إلى مـدينـة القطائع عاصمة الدولة الطولونية في مصر. ليباعا في أسواقها.

فتمنى صاحبه أن يباع طباخاً . وتمنى كافور أن يملك هذه المدينة . وقد بلغ كل مناه !! .

بيع كافور لأحد القواد ، وبيع صاحبه لطباخ . ثم مرت الأيام ، فأصبح كافور ملكاً لمصر . ومرَّ يوماً بصاحبه فرآه عند سيده يسيء معاملته . فقال لمن معه : لقد قعدت بهذا همته ، فكان كما ترون ، وطارت بي همتي فكنت كما ترون ، ولو جمعتني وإياه الرغبة لكنا في عمل واحد .

وصدق الشاعر:

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هواناً بها كانت على الناس أهونا

* * *

حياة . . وحياة

يقول الإمام محمد عبده:

(إنَّ أبي قد وهبني حياة يشاركني فيها أخي علي . وأخي محروس . ولكن أستاذي جمال الدين ـ وهبني حياة أشارك فيها: محمداً وإبراهيم وموسى وعيسى . والأولياء).

* * *

وإذا كان في الشباب من هو كالزجاج: يستقبل الشعاع فيعكسه كما هو شعاعاً واحداً . .

فإن هناك رجلاً كفص ألماس يستقبل الشعاع فيعكسه ألفا!

وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

* * *

الأساس القراني

وأساس هذه الهمة الرامية إلى بعيد في مثل قوله تعالى :

﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما﴾[1] .

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢٤ .

والآية الكريمة تتحدث عن ختام دعوات جاشت بها صدور (عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً).

ومع ذلك:

ففي قلوبهم عزائم الخير والمال:

إنَّ عباد الرحمن يطلبون الزوجة.. كما يطلبون الذرية.. وفوق ذلك يرجون الإمامة في باب التقوى:

لا يطلبون مجرد التقوى.. لكنهم يتطلعون إلى مكان الصدارة فيها.

أي إن عبوديتهم للحق سبحانه وتعالى أنبتت لهم أجنحة تطير بهم فوق مستوى الحياة العادية الرتيبة.. ليشموا رائحة الجنة من مكانهم الأعلى.. بعد أن تحرروا من قيود الدنيا. بيد أن هذه الهمة البعيدة لم تمت في قلوبهم غرائز الجنس والأبوة.

وها هم أولاء يرجون الزوجة والذرية..

لكنه الرجاء المحكوم بالإمامة في باب التقوى:

فليست هي مجرد الزوجة:

بل الزوجة التي تقر بها العين. وتستقر الأوضاع. وتمضي مع زوجها على الطريق إل ذروة التقوى..

الزوجة التي تقول:

(رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة)[1].

وتحت راية الزوجين ذرية تنشأ صالحة بما ترى وتسمع من أبوين صالحين.. فإذا هي عمر ثان.. يحيا به الأبوان.

* * *

---

(١)سورة التحريم، الآية: ١١.

فانظر كيف يحلق القرآن بالمسلم حتى لا يقنع في طيرانه بما دون النجوم!

ومع ذلك يمشي به على الأرض.. يستمتع بما فيها استمتاعاً لا ينسيه مكانه الحقيقي هناك.. في السماء.

وصدق الشاعر القائل:

وللعصفور والبازي جميعاً لدى الطيران أجنحة وخفق
ولكن بين ما يصطاد باز وما يصطاده العصفور فرق!!

* * *

الإسلام والفلسفات البشرية

وفي الوقت الذي تحاول مذاهب الأرض حصر همة الإنسان في ترابها ليحيله ذهباً كما زعموا.. يظل الإسلام وفياً للإنسان الذي يجعل منه روحاً طليقة.. محلقة فوق التراب بما شرع له من أهداف عليا.. ثم طار به إليها:

يقول الرافعي:

(لولا التدين بالشريعة لما استقامت الطاعة بالقانون في النفس. ولولا الطاعة النفسية للقوانين لما انتظمت أمة.

فليس عمل الدين إلا تحديد مكان الحي في فضائل الحياة.

وتعيين تبعته في حقوقها وواجباتها. وجعل ذلك كله نظاماً مستقراً فيه لا يتغير.

ودفع الإنسان بهذا النظام نحو الأكمل.. ودائماً نحو الأكمل).

وفي ضوء الدين تسمو الدوافع التي تستنهض المسلم ليرقى إلى سمواتها العالية..

وفي ذلك يقول الرافعي أيضاً:

(وكل أمة ضعف الدين فيها. اختلت هندستها الاجتماعية. وماج بعضها في بعض:

فإن من دقيق الحكمة في هذا الدين. أنه لم يجعل الغاية الأخيرة من الحياة غاية في هذه الأرض.

وذلك لتنتظم الغايات الأرضية في الناس. فلا يأكل بعضهم بعضاً. فيغتني الغني وهو آمن. ويفتقر الفقير وهو قانع. ويكون ثواب الأعلى في أن يعود على الأسفل بالمبرة. وثواب الأسفل في أن يصبر على ترك الأعلى في منزلته. ثم ينصرف الجميع بفضائلهم إلى تحقيق الغاية الإلٓهية الواحدة. التي لا يكبر عليها الكبير. ولا يصغر فيها الصغير.

وهي: الحق، والصلاح، والخير، والتعاون على البر والتقوى).

* * *

وهذه المقولة الراشدة تنفي ما زعمه الملحدون الرافضون لفكرة التدين وخاصة الإيمان بالآخرة.. ليتفرغ الإنسان كما زعموا بكل طاقته ليجعل من الحياة الدنيا جنة ونعيماً. وكانت نتيجة هذا المسلك الخاطىء ما نشاهده اليوم من فساد ضرب أطنابه في أغنى دول العالم.. وأكثرها تقدماً في مجال المادة وهي أمريكا:

نشرت مجلة «أخبار العالم الإسلامي»

هذه هي إحصائيات الجريمة في أمريكا. في يوم واحد:

جريمة قتل.. كل ساعة.

اغتصاب.. كل ٢٥ دقيقة.

سرقة.. كل ٥ دقائق.

سرقة سيارة كل دقيقة.

نهب.. كل ١٢ ثانية.

* * *

أليس ذلك ما أشار إليه قول «الرافعي» الآنف.. وهي أنه في غياب قيم الإيمان.. يأكل الناس بعضهم بعضاً.. ولا تقوم في أنفسهم رغبة في التفوق والازدهار..

* * *

في مجال التطبيق

ولقد كان المسلمون عند حسن الظن بهم: فاستوعبوا هذه الدروس وكانوا خير معبر عنها.. عملياً:

كان عمر بن عبد العزيز يقدم له الثوب الناعم.. فيطلب أنعم منه.. ويقدم له الطعام الطيب.. فيطلب أحسن منه..

فلما ولي أمور المسلمين.. تغير كيانه.. حين ربط نفسه بالمثل الأعلى:

فكان يقدم له الخشن.. فيطلب أخشن منه..

فلما سئل في ذلك قال:

كنت أطلب الإمارة.. فنلتها.. ثم الخلافة.. فنلتها.. فلم يبق إلا الجنة!!

ومضت بالمسلمين عقيدتهم القويمة إلى مثل ما وصل إليه عمر بن عبد العزيز..

* * *

معركة الكرامة

أراد أحد الشعراء أن يغيظ غريمه.. بل أراد أن يشجب حياته كلها فهجاه بهذا البيت:

دع المكارم. لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

إنه يقول له:

لم تخلق لمعالي الأمور.. فوفر على نفسك طلبها.. مكتفياً بجلوسك مع القواعد.. مطعوماً مكسواً!!

وقامت الدنيا ولم تقعد حتى رفع المشتوم قضيته للحاكم الذي أحال القضية عل أهل البصر بالشعر فقرروا أن الشاعر قتل زميله بهذا البيت..

فكان العقاب الصارم.. دليلاً عل أن علو الهمة من الإيمان.. ومن اجترأ عليه.. فقد حقت عليه كلمة العقاب.

* * *

دور الصدقة
في حل مشكلاتنا الاجتماعية

روى مسلم رضي الله عنه. أن رسول الله ﷺ قال:

(قال رجل: لأتصدقن الليلة بصدقة.

فخرج بصدقته. فوضعها في يد سارق.

فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على سارق!

فقال: اللهم لك الحمد.. على سارق!.. لأتصدقن بصدقة ثانية.

فخرج. فوضعها في يد زانية.

فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على زانية!

فقال: اللهم لك الحمد.. على سارق.. وعلى زانية!!.. لأتصدقن الليلة بصدقة.

فخرج. فوضعها في يد غني.

فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على غنى!

فأُتي (أي رأى في المنام) فقيل له: أما صدقتك.. فقد قُبلت:

أما السارق: فلعله يستعف عن سرقته.

وأما الزانية: فلعلها تستعف عن زناها.

وأما الغني: فلعله يعتبر. فينفق مما أعطاه الله تعالى)

* * *

تمهيــد

لم تكن الصدقة في تقدير الإسلام مجرد لقمة تسد بها جوعة أخيك.. بقدر ما هي لون من التكافل الاجتماعي. يقوى به الصف. وتلتئم به الجراح.

وينهض المكسور مجبور الخاطر عاملاً آملاً. مع إخوة له في المجتمع. يمدون أيديهم بالعطاء لغريق يأخذ اليوم سمته مع العاملين الآملين.. على طريق الوحدة.. في موكب آسر (يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار)[1].

من أجل ذلك كانت صدقة المسلم ضربة لإبليس وسبعين من زبانيته يهبون مذعورين ينهون المسلم عن التصدق!

ولأن المسلمين لا ينفكون يتصدقون.. ولأنهم بذلك يقوون وينهضون.. فإن الشيطان لا يملٍ من ممارسة هوايته في التثبيط.. حتى يظل الجائع جائعاً.. والمريض مريضاً.. والعريان عرياناً..

وها هو ذا يوسوس إلى الإنسان مركزاً عل عنصر الأنانية فيه.. تلك الأنانية التي قد تسول للإنسان أن يحرق بيتاً.. ليسلق بيضته!!

وقد أشار الحق تعالى لهذه الحملة في قوله سبحانه:

﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم﴾[2].

ويوجه الله تعالى ورسوله نظر المسلمين المتصدقين إلى خطورة هذه الحملة الظالمة واضعاً في اعتبارهم شراسة المقاومة الشيطانية.. لافتاً أنظارهم إلى أن ما ينفقونه باق.. لا يذهب بدداً.. وإن كيد الشيطان إلى زوال متى انتصبت في وعي المسلم هذه الحقيقة.. وقلب حسابات ربحه وخسارته عل خلاف ما يهوى الشيطان.. وذلك قوله تعالى:

﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾[3].

﴿وما انفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾[4].

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٨.
(٣) سورة النحل، الآية: ٩٦.
(٤) سورة سبأ، الآية: ٣٩.

وفي تجسيد هذه الحقيقة تروي عائشة رضي الله عنها: أنهم ذبحوا شاة فقال النبي ﷺ: «**ما بقي منها؟**» قالت:

ما بقي منها إلا كتفها. فقال: «**بقي كلها إلا كتفها**».

أهداف الصدقة

والحديث الشريف لا يقف بالصدقة عند حدها الأدنى: إطعاماً للفقير.. ولكنه ينبه إلى أهدافها الاجتماعية ودورها في تخليص المجتمع من أمراضه التي تفتك به، لتكون بحق كما أشارت السنة المطهرة: حصناً للمال، ووقاية من مصارع السوء، وشفاء للمريض، وإطفاء لغضب الله الذي إذا جاء لا يغنيك مالك الممدود.. ولا خيرك المشهود.

* * *

موقف الرجل

هذا الرجل دعاه إلى البذل داع. فقرر أن يخرج من ماله شيئاً يسعد به أخاه المسلم.

وقد صدرت هذه المبادرة عن قلب شاعر مخلص تحرى أن تكون صدقته في ستر من الليل.

ويشاء القدر أن تصادف واحداً من السراق.. والفرض أن تكون في يد واحد من الفقراء.. الشرفاء!

وإذن فقد اختل معنى الانتماء.. ولم تحقق الصدقة المتعجلة هدفها.. في نظر المجتمع الذي تواصى بذلك.. راجعاً بالصدقة إلى معناها الضيق المحدود! وإذا حمدنا لهذه الرقابة الاجتماعية دورها في المتابعة والتصحيح..

ـ مع التسليم بضيق أفقها ـ فإنا نحمد لهذا الرجل أنه لم يقابلها بالضيق والتبرم. وإنما واجهها بمزيد من الإحسان الكاشف عن نفسه الخيرة المطبوعة على الخير.

ثم تجاوز حملة النقد.. منفذاً خطته المثلى في مواصلة العطاء.. ومسيرة البناء.. راجعاً بالأمر كله إلى الله تعالى.. حامداً له سبحانه أن أبقى على بواعث الخير فيه..

ولئن بدا الخلل في مصرف الصدقة. . فقد بقيت نفسه كما برأها الحق تعالى خيرة مصرة على العطاء. . وذلك في حد ذاته كسب كبير!

ويبدو الرجل هنا واقعاً تحت ضغط المجتمع الذي علمه ضمن تقاليده الموروثة أن مثل هذه الصدقة مردودة عليه! بدليل أنه كرر المحاولة مرة. . وثانية. . وثالثة. . في محاولة لإصلاح الخطأ المظنون!

ولكن شخصيته القوية لم تسمح لهذا المجتمع أن يفرض عليه سياسة الأمر الواقع. . فمضى لسبيله. . بما يملك من إصرار على مواصلة العطاء.

* * *

حملة النقد تحقق بعض أهدافها

وللرأي العام ضغطه العالي. وله تأثيره الواضح. . فيما بدا من أسفه الشديد إن أخطأ الهدف. . طبق هذا العرف السائد. وعاد إلى بيته مهزوماً. . مكروباً. .

وعندئذ فقد ينتابه إحباط يقضي على بذرة الخير فيه. . فتتعفن. . وتندثر. . ومن رحمة الله بعباده أن يلطف بهم. . فيما يربيهم به. . عبر الأحداث اليومية تدعيماً لبواعث البر في النفوس. . واستدامة لهذه البواعث لتظل مصدر عطاء.

* * *

الدرس البليغ

ويصحو الرجل على تلك البشرى. . بشرى قبول صدقته بعدما ذاق من الأسى. . ويصبح الموقف برمته درساً للمجتمع كله. . يكشف عن دور الصدقة في حل مشكلاتنا الاجتماعية. .

وإذا كان الطبيب للمرضى كي يصحوا. . فإن الصدقة المستقرة في يد العاصي أو الغني. . قد صادفت علة في جسم الأمة يجب أن تزول. . ليصح العليل. . ويستيقظ البخيل. . ليأخذوا مكانهم في الصف الإسلامي جنداً للحق. وسنداً لحركات الإصلاح.

آفاق رحيبة

لقد انكشف الغطاء إذن عن الآفاق الرحيبة التي تتحرك فيها اليد المنفقة. .

وانحسرت موجة النقد. . وبدا الطريق واسعاً أمام النوايا الطيبة لتنطلق على جادة البر:

تنقذ السارق الذي سوف يجرب العمل الشريف سبيلاً إلى تحصيل المال الصالح.

وللخروج بالزانية من ضغط الحاجة الذي ألجأها إلى موقف. . ربما تأباه طبيعتها. . ثم. . لعل الغني أن يتذوق لذة الإعطاء فيقف إلى جانب من أعطاه باسطاً يديه بالعطاء. .

وليحيي الله تعالى بالصدقة أنفساً كادت تموت. . لولا أن تداركتها شفقة الكرماء. . فدبت فيها الحياة.

* * *

فليحذر المتسرعون

وليت شعري. . كم من حملات لائمة تتصدى في غفلة من الحق ـ لنبع الخير يفيض به قلب مسلم. .

بل كم من حملات تشهير استهدفت شرف الكرماء. بلا دراسة كافية لدوافعهم. . فكف هؤلاء الكرماء عن المضي على طريق العطاء فراراً من تبعاتها. . ويجف نبع الخير في صدور الكرماء. . بأيدي اللائمين. . من حيث لا يشعرون.

* * *

نماذج وصور

لقد فتح الإسلام بالصدقة أسواقاً لتجارة رابحة. . سارع إليها المخلصون بقلوب أوسع من الدنيا كلها. . فكانوا تعبيراً عن رحابة الإسلام. . التي تهرع إليها نفوس المعذبين لتجد في رحابها برد السلوى:

كان الرجل الكريم يتصدق. . ولا يدقق. . فلما عوتب في ذلك دافع عن نفسه قائلاً: إن وقعت صدقتي في يد كريم. . فقد حميت بها عرض هذا الكريم. . وإن وقعت في يد لئيم. . فقد حميت عرضي من هذا اللئيم!

فلماذا لا نلقي حبة القمح الواحدة في أرض خصبة رطبة معشبة لتنبت سنبلة فيها مائة حبة يخضوضر بها الوادي كله؟!

لا تستغل صدقتك . . ولا تنكر محلها . .

إنك إن تصدقت بحصاة من الملح . . فكأنك تصدقت بكل ما أصلح الملح . . وإذا تصدقت بماء . . فكأنما تصدقت بكل ما صنع الماء . . وإذا تصدقت بنار . . فكأنما تصدقت بكل ما أنضجت النار!

فلماذا الإحجام . . والعائد غزير وفير؟

إن اليهودي . . والنصراني إذا افتقرا . . فإن المجتمع الإسلامي يفتح ذراعيه لهما . . حتى يحميهما من التسول . . حتى من بني جنسهما . . فكيف لا تكون الصدقة في يد أخيك المسلم صالحة مصلحة؟!

* * *

سرقت دنانير طائف بالبيت العتيق . . فرآه أبوه يبكي . فقال له: أتبكي على الدنانير. فقال: لا.

ولكني أبكي على المسكين الذي سرقها . . وسوف يُسأل أمام الله تعالى . ولا حجة له! فتأمل موقف الرجل المسروق . . الباكي . . الذي لم يشغل نفسه بلعن السارق . . ولكن شغلته إنسانيته بمصيره .

* * *

ولكن ابن مسعود رضي الله عنه يرتفع إلى مستوى أعلى حين جعل من حادث سرقته دعوة إلى القضاء على ظاهرة السرقة حين دعا للسارق نفسه قائلاً:

اللهم إن كان محتاجاً . . فبارك له فيما أخذ . واجعله صدقة لي .

وإن كان قد فعله جرأة على الحق . . فاجعله آخر ذنوبه . . وتب عليه!

وهكذا تجري الدموع غزيرة . . وينطلق الدعاء ضارعاً . . في محاولة لإصلاح المذنب . . لا لتحطيمه . .

وتبدو قلوب العافين هنا راضية . . نزاعة إلى الإصلاح . . وما أسعدها من قلوب تشغل نفسها بمعركة الترقي . . بدل أن تبذل طاقاتها في صراع التدني . .

وما أسعد أصحابها بها . . حين أراحتهم من موجات الغضب والتمزق . . فطالت أعمارهم . . وخلدت ذكراهم . .

كما أسعدهم العقل الواعي بفلسفة الصدقة على نحو يجعل منها جهداً مشتركاً بيد الآخذ والمعطي: لا منة فيه لأحد على أحد. قال الإمام الشعبي رضي الله عنه:

مَنْ لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته. فقد أبطل ثواب صدقته.

ومعنى هذا: أنك تعطي عطاء من لا يحق له أن يمن.. أو يؤذي.. ومعناه أيضاً: أن تأخذ طريقك بالصدقة إلى مرضاة ربك:

وإذا كانت الصلاة تبلغك نصف الطريق.. وكان الصوم يقف بك على باب الملك.. فإن الصدقة تدخلك عليه!!

* * *

عبيد ولكن الملوك عبيدهم

إذا كان مفهوم الصدقة على مستوى القمة كان هكذا إنسانياً.. فكم يكون جميلاً أن يظل على مستوى القاعدة بنفس القوة.. ليتأكد للناس مدى قدرة الإسلام على صياغة النفوس.. في كل موقع.. وعلى كل مستوى..

وها هي ذي قصة غلام.. مملوك.. نقدمها تعبيراً عن هذه الحقيقة التي تفرض نفسها.. بلا نزاع.. وتقديراً للجهد الإنساني القادر بالإنفاق على أن يقضي على آفات المجتمع من التسول.. والبطالة.. واكتشاف النماذج التي طواها النسيان.. لتأخذ دورها في إسعاد الأمة:

خرج عبد الله بن جعفر إلى مزرعته يوماً، فمر بغلام يعمل في حديقة من نخيل. وبعد الفراغ من عمله. أحضر طعامه ليأكل. فإذا كلب يدخل عليه. قبل أن يبدأ في الأكل.

ولمح الغلام الكلب. فألقى إليه برغيف.

فلما التهمه.. ألقى إليه بالثاني.. ثم بالثالث.

ولم يبق من زاده شيء.

واسترعى المشهد انتباه عبد الله بن جعفر فقال للغلام:

كم قوتك كل يوم؟

فقال: ما رأيت. . «يعني ثلاثة أرغفة» .

فقال عبد الله: فلم آثرت الكلب بها؟

فقال الغلام: أرضنا ليست بأرض كلاب. . وإذن فقد جاء هذا الكلب من بعيد جائعاً. . فكرهت أن أشبع والكلب جائع!

ثم سمع الغلام يقول: أطوي يومي هذا. .

عندئذ قال عبد الله:

هذا الغلام أسخى مني. . فاشترى الحديقة وما فيها. . ثم أعتق الغلام. ووهبه جزءاً منها.

* * *

نذكر هنا قول أحد زعماء العالم الثالث:

(إنَّ شعوبنا في العالم الثالث تعرف بطولة الأيام التاريخية. ولكنها لا تعرف بطولة الجهد اليومي الذي يبني تقدم الأمم).

وهذا المشهد واحد من صور البطولة الغائبة في زحام الحياة. . تكشف الستار عنها اليوم. . تبصرة وذكرى:

إنها حقاً ذكرى. . محفورة على جذع شجرة خضراء. . لا يغطيها النسيان. . ولكنها تتسع في وعينا. . كما يتسع النقش على جذع هذه الشجرة كلما نمت وترعرعت! فماذا في الموقف من معان؟

إنه شاب ذكي واع:

أ ـ رصد بيئته. . وسجل مكوناتها. . وتعامل معها تعامل العارفين. .

ب ـ ثم إنه على أعلى مستويات الإنتماء. .

فلم يجد بحصته التموينية لإنسان. . بل لكلب. . وإذن فلو تعلق الأمر بإنسان. . لفداه بنفسه إذا عز الفداء.

جـ ـ وهو شاب جواد.. يؤثر على نفسه.. ولو كان به خصاصة..

د ـ وهو يجود من عمل يده.. ليكون حجة على زميله اليوم. والذي قصاراه في خدمة الإسلام أن يدعو إلى محاضرة تنوه بقيمة العمل.. بينما ذلك الغلام يصنع هذه القيمة على أرض الواقع صنعاً!

هـ ـ وهو العامل الصبور الذي آوى إلى ظل شجرة.. ليأكل زاده الأثير.. فلم تترك له الظروف فرصته الوحيدة التي يجدد طاقته.. فتحملها صبوراً شكورا.

و ـ إنه باختصار.. كان كالنخلة التي يرعاها.. مثالاً للمؤمن الذي كانت النخلة مثاله كما أشار الحديث الشريف.

❊ ❊ ❊

واجب الأمة

كان عبد الله بن جعفر غنياً..

ولم يكن يسير في كوكبة من الحشم تحجب عنه الرؤية الواعية ولكنه يمضي مشدوداً إلى هموم أمته..

فلما رأى ذلك الغلام.. ماذا فعل؟

لم يمطره بوابل من عبارات الثناء.

ولم يدع إلى احتفال يشيد بموقفه الرشيد..

ولم يكتف بنقل ملكية الغلام إليه من سيده. ليستمتع وحده بمميزاته..

ولكنه اتخذ القرار الأمثل:

اعترف أولاً.. وبشجاعة نادرة أن هذا الفتى أسخى منه..

وإذا كان الغلام تبرع بثلاثة أرغفة فقط.. فقد سبق درهم مائة ألف درهم..

❊ ❊ ❊

وقد اتخذ قراره بشراء البستان..

ثم عتق العبد..

وأعطاه بعض البستان..

ثم تركه في ظل قيم الحرية يمارس هوايته في :

الوعي . . والإنتماء . . والصبر . . والإيثار . . وليبذر منها بذوراً على أرض المجتمع تثمر من كل زوج بهيج .

وهكذا تتقدم الأمة في شخص ابن جعفر لترعى الكفايات التي أهملها النسيان . .

ونحن مدعوون إلى الكشف عن هذه العملة النادرة . . الصعبة . .

وما أكثر هذه النماذج لمن أراد أن يخدم أمته . .

❊ ❊ ❊

وبعــــد

فإلى الأغنياء نتجه برجاء خاص أن يجعلوا من زكاتهم قسطاً وافراً لمثل هذا الفتى الذي يحسبه الجاهل غنياً من التعفف . . إن الذين يسألون من المحترفين موسرون بهذا الإلحاف . . أما مثل هذا الغلام الذي تبرع بحصته . . لن يسأل . . ولو قطع لسانه . . ولو شلت يداه . .

فلنعفهم من ذل السؤال . . بقدر من المال . . نحيي به نفساً . . ونجدد شباب أمة . . واذكروا عنترة :

لقد هوجمت قبيلته يوماً . . وقال له أبوه : كر . .

فقال : العبد لا يحسن الكر . . وإنما يحسن الحلاب والصر .

فقال له أبوه : كر . . وأنت حر . .

فانطلقت بالحرية ملكاته المحبوسة . . ففعل الأعاجيب . . وقد أشار إلى ذلك بقوله . .

قد كنت فيما مضى أرعى جمالهمو ... واليوم أحمى حماهم كلما نكبوا

❊ ❊ ❊

من ملامح المنهج القرآني
في تكريم المرأة

﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين.

وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وإن تعفو أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾[1].

* * *

تمهيد

تتحرك الرغبة في قلب الفتى.. فيتقدم لخطبة فتاة أحلامه التي يراها مستراد آماله:

تتعارف الأسرتان.. وتتشابك المصالح. ثم يتوج الأمر أخيراً بعقد القران. وينبعث الخيال الطليق يبني قصور الأماني.. التي ترسم عش الزوجية شجرة ظليلة.. يأوي إليها قلبان يخفقان بعاطفة من المودة: تحس.. ولا توصف!

وفجأة.. تنطفىء الأنوار.. وينفض السامر. وتنهار قصور الأماني.. ثم يكون الطلاق.. بينما الرفيقان من الفردوس الموعود.. غير بعيد!

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٦ ـ ٢٣٨.

ماذا يقول الناس؟

ستذهب بهم الظنون كل مذهب. . وتطير بهم أوهامهم كل مطار:

ومن بين هذه الظنون:

إن الزوج المرتقب رأى من رفيقته ما لا يرضى من القول أو الفعل.

إنه في زعمهم لم يعاشرها بعد حتى يتخذ قراراً بالطلاق مدروساً. .

فلماذا يتخذ القرار هكذا. . وفجأة. وعلى غير ميعاد؟

لا شك أن هناك سراً مكتوماً . .

وتنطلق المخيلة وراء السر الموهوم. . رجماً بالغيب. . على نحو يشين إنساناً بريئاً. . ينفصل اليوم عن رفيقه. . ثم نضيف نحن إلى أثقاله. . أثقالاً. . بهذه الظنون.

* * *

من أجل ذلك. . كان الطلاق قبل الدخول ضربة مؤلمة. . وللمرأة بالذات. . وإذن. . فلا بد من تعويضها. . بالوقوف إلى جانبها في محنتها. . تأكيداً لعفتها. ودفاعاً عن كرامتها. فكانت شريعة العدل القاضية بإعطائها المتعة أو نصف المهر. . على قدر العلاقة المحدودة. . التي لم تُمكن أيهما من الاستمتاع بصاحبه.

* * *

حساسية القضية

كان ﷺ يكثر النهي عن الطلاق. تقديراً منه لموقف المرأة هذا الحرج. . وبياناً لمقاصد الزواج الشرعية. حتى لا تنهدم البيوت قبل تمامها. وكان رد الفعل لدى الصحابة أنهم ظنوا أنَّ من طلق قبل البناء. فقد عرض نفسه للعقاب. . فجاءت الآية الأولى لترفع ذلك الحرج:

﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن. . . ﴾.

يقول القرطبي:

(وهو ابتداء إخبار برفع الحرج عن المطلق قبل البناء والجماع. فرض مهراً. أو لم يفرض.

ولما نهى رسول الله ﷺ عن التزوج لمعنى التذوق. وقضاء الشهوة. وأمر بالتزوج لطلب العصمة. والتماس ثواب الله. وقصد دوام الصحبة. وقع في نفوس المؤمنين أنَّ من طلق قبل البناء فقد واقع جزءاً من هذا المكروه. فنزلت الآية رافعة الجناح في ذلك. إذا كان أصل النكاح على المقصد الحسن)

❊ ❊ ❊

دلالة المتعة

وللمتعة دلالاتها: من الناحية النفسية. ومن جهة الشرف. إلى جانب مضمونها الاجتماعي:

إن لها دلالتها الإنسانية الرامية إلى قدسية العلاقات الزوجية حتى قبل الدخول.. ولئلا يتلاعب بها العابثون.. إلى جانب كونها جبراً لخاطر أنثى ضعيفة لا يرحمها المجتمع. ولا يلتمس لها عذراً:

(ولهذا العمل قيمته النفسية. بجانب كونه نوعاً من التعويض:

إن انفصام هذه العقدة من قبل ابتدائها ينشىء جفوة ممضة في نفس المرأة. ويجعل الفراق طعنة عداء وخصومة.

ولكن التمتيع يذهب بهذا الجو المكفهر. وينسم فيه نسمات من الود والمعذرة. ويخلع على الطلاق جو الأسف والأسى.

فهي محاولة فاشلة إذن.. وليست ضربة مسددة. ولهذا يوصي أن يكون المتاع بالمعروف استبقاء للمودة الإنسانية. واحتفاظاً بالذكرى الكريمة. وفي الوقت نفسه لا يكلف الزوج فوق ما لا يطيق: فعلى الغني بقدر غناه. وعلى الفقير في حدود ما يستطيع)[1].



(١) في ظلال القرآن.

صيانة الأعراض

وإلى جانب هذا المعنى النفسي يتبدى حرص الإسلام على العرض الذي هو في حس العربي مثل الزجاجة: كسرها لا يجبر:

(إن في هذا الطلاق غضاضة وإيهاماً للناس أن الزوج ما طلقها إلا وقد رابه منها شيء.

فإذا هو متعها متاعاً حسناً. تزول هذه الغضاضة. ويكون هذا المتاع الحسن بمنزلة الشهادة بنزاهتها. والاعتراف بأن الطلاق كان من قبله أي لعذر يختص به. لا من قبلها. أي لا لعلة فيها.

لأن الله تعالى أمرنا أن نحافظ على الأعراض بقدر الطاقة. فجعل هذا التمتيع كالمرهم لجرح القلب. لكي يتسامع به الناس فيقال:

إن فلاناً أعطى فلانة كذا وكذا. فهو لم يطلقها إلا لعذر. وهو آسف عليها. معترف بفضلها. . لا أنه رأى عيباً فيها أو رابه شيء من أمرها)[1].

* * *

ومن الناحية الاجتماعية

لا بد أن علاقات قد نمت وتشابكت بين أفراد الأسرتين. .

وقد يكون هناك من الفريقين زملاء في الديوان أو قاعات الدرس. .

وحينئذ فسوف يكون ذلك التمتيع رمزاً مؤكداً لاعتذار الزوج. . معلناً أسفه. محتفظاً للمطلقة بحقها في الكرامة. . مما ينعكس حتماً على علاقة الفريقين. . التي وإن بقيت في أدنى مستوياتها. . فهي على أي حال أفضل من التدابر المنعكس على الموقع كله عناداً وتربصاً.

* * *

مقام الإحسان

وإذْ تحقق «المتعة» هذه الثمرات: النفسية والخلقية. والاجتماعية. . فإنها لا تكون فقط «ملحفة» أو هدية عينية. . إن مجرد «ملحفة» أو هدية. . لا تنشىء هذه

---

(١) المنــار.

الآثـار جميعاً. . وإنمـا هي مردودة إلى شيء أكبـر من ذلـك هـو: أن يتحمـل أهـل الـزوج. . وأهل الـزوجة نصيبـاً من التعاون على البـر يتجاوزان بـه المحنـة. . فـلا يحاولون تعكير الجو بتعليقات يراد بها الحكم بإدانة فريق دون فريق. .

لا بـد من محاولـة الصعود إلى مقـام الإحسان. . إحسـان القول. . وإحسـان العمل. . حتى تلتئم الجراح. . ويأخذ كل واحد طريقه إلى رفيق جديد. .

﴿وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته وكان الله واسعاً حكيماً﴾[1].

وعلى الطابور الخـامس من الصائـدين في الماء العكـر أن يلزموا الصمت. . على هؤلاء جميعاً إن لم يحسنوا. . أن يسكتوا. . على الأقل: اعتذاراً عن تخاذلهم إزاء علاقة كـان من الممكن أن تدوم. . لـو وجدت من الأقـرباء والبعـداء من خف لنجدتها قبل أن تزول.

* * *

دورنا الحقيقي

(الحقيقة هي:

أن نكون مع الذين يتألمون.

وهي: أن نبكي مع الذين ينتحبون.

وأن نجد فرصتنا في تخفيف الألم.

وفي الامتناع عن الغناء والضحك. حين يبكي الآخرون.

وأن نفتح أعيننا على بؤس البائسين. فنعمل لتخفيفـه بإخـلاص. بدلاً من أن نغسل منه أيدينا.

بالحقيقة: ليس الفن. ولا الموسيقا. ولا روح النكتة. ولا القهقهات ولا الفرح الذي يدفع الآخرون ثمنه عرقاً.

إنها عناء غيرنا. حين نشترك فيه. إنها دمعة تمسحهـا. وبسمة نبعثهـا. وطفل نساعده على الحياة. وشيخ نواسيه).

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٠.

الموقف بعد فرض الفريضة

سألني شاب متحمس :

لماذا جنحت إلى زيادة نصيب الفتاة التي طلقت قبل الدخول.. والفرض بنص الآية الكريمة أن لها النصف.. لا يزيد؟!

قلت له: تجاوز معي الحكم الظاهر إلى الحكمة المستكنة في نسق الآية الكريمة.. إنها تذكر العدل هنا.. لتجعل منه منطلقاً إلى الفضل..

إلى مستوى أعلى هو: العفو: عفوها.. أو عفوه.. والذي لا يفرض فرضاً.. لكنه معروض لمن أراد أن يحسن تقدير الموقف.. ولا تقول الآية الكريمة مثلاً:

أعطوهن نصف ما فرضتم..

أو: فنصف ما فرضتم لهن..

وإنما تصوغ الحكم هكذا:

(فنصف ما فرضتم).. فيبدوا النصف هكذا معلقاً: أي أن الحكم معروض على بساط البحث بينهما. وكأنها تقول للزوجة:

هذا حقك أمامك.. إن شئت أخذتيه.. وإن شئت تركتيه.. ولك أن تقولي: أنا لم أخدمه.. ولم يستمتع بي ساعة من نهار.. فعلى أي أساس أقبل منه النصف.. ولم أقدم إليه شيئاً؟!

وللزوج المفارق أن يقول:

مسكينة تلك الفتاة التي سعدت يوماً «بالشبكة» التي مرت بها على كل بيت..

وزهت بها على كل زميلاتها..

إنها تصبح اليوم ذكرى.. فلها مني كل المهر جبراً لخاطرها.. وقطعاً لألسنة تحاول أن تنال سمعتها بسوء.. وهي الشريفة العفيفة..

وهكذا يحرض السياق كلا الطرفين على الإحسان.. لتبدو المرأة.. ويبدو الرجل في أشرف الأوضاع.. على نحو يغسل ما قد علق بهما من أدران.. ويشجع الآخرين على الرضا به زوجاً.. والرضا بها زوجة!!

العفو . . يستعلن

وحين نقترب من الآية الكريمة نجد نصيب العفو أوفى :

أ ـ إلا أن يعفون . .

ب ـ أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح . .

جـ ـ وأن تعفو أقرب للتقوى .

د ـ ولا تنسوا الفضل بينكم .

وربما جاز لنا أن نقول :

إن العفو هو الأساس . . إلا أن الآية الكريمة تأخذ بيد الزوجين إلى هذا العفو عن طريق باب العدل . . حتى يكون قراراً لعفو ذاتياً غير مفروض !

* * *

في مجال التطبيق

كانت الأمة الإسلامية على مستوى المسؤولية . . استجابة للحكمة البادية في الآية الكريمة . . وشهد التاريخ نماذج عالية يزدان بها جبين الحياة :

طلق «جبير بن مطعم» بنتاً «لسعد بن أبي وقاص» قبل الدخول . ثم أرسل إليها المهر كاملاً .

وتساءل الناس عن سر هذه المعادلة الصعبة :

طلاق مفاجىء . . ومهر كامل ؟ !

وقطع «جبير» الشبهة بقوله :

أما التزوج : فلأن أباها عرضها علي . فما رأيت أن أرده .

وأما العفو ـ بإعطاء المهر كله ـ فإنا أحق بالعفو منها .

ولقد حقق موقف جبير ما يلي :

١ ـ بدت صورة المرأة منزهة من العيب . بهذا العفو الذي يكفر به الزوج عن سيئة من سيئاته .

٢ ـ إمكان استمرار المودة بين الأسرتين بعد الطلاق بهذا التسامح.

٣ ـ وكما أشار صاحب الظلال: بيان أن التجربة لم تكن مؤامرة قاتلة. ولكنها كانت تجربة فاشلة.. ويمكن أن تنجح المحاولة مع ما قُدر لكلٍ بعد ذلك.

* * *

في بيت الحسن بن علي

كانت عائشة الخثعمية عند الحسن بن علي. فلما أُصيب علي. بويع الحسن بالخلافة. فقالت له عائشة:

لتهنك الخلافة يا أمير المؤمنين!

فقال: يُقتل علي، وتظهرين الشماتة؟ اذهبي فأنت طالق ثلاثاً!

فخرجت. وقعدت حتى انقضت عدتها. فبعث إليها بعشرة آلاف. متعة. وبقية ما بقي لها من صداقها. فقالت:

متاع قليل. من حبيب مفارق.

فلما بلغه قولها. بكى. وقال: لولا إني سمعت جدي ﷺ يقول:

«**أيما رجل طلق امرأته ثلاثاً.. لم تحل له حتى تنكح زوجاً غيره.. لراجعتها**»[1].

لقد أغلظت الزوجة في القول.. فذهب الإنفعال الغاضب بعلاقة الزوجية.. التي بقيت جذورها ضاربة في قلب زوجين حبيبين..

ومع بعد الشقة.. ووعورة الطريق.. إلا أن ذلك لم يمنع الرجل من الإحسان.. تقديراً منه لماضي الزمان.

وهكذا يتعامل المسلمون.. في الرضا والغضب.. في المنشط والمكره.

* * *

وأين هذا مما حدث «لتولستوي» أكبر كتاب روسياً في عهد القياصرة: لقد كان يعيش مع زوجته سعيداً. في مستهل حياته.

---

(١) القرطبي بتصرف.

ولما تغيرت آراؤه لحساب الفقراء. انكرت عليه زوجته ذلك ونغصت عليه حياته.. فقتلته ببطء..

فخرج في ليلة عاصفة باردة هائماً.. فأصيب بالتهاب رئوي أحد عشر يوماً. ووجدته زوجته جثة ملقاة على محطة السكك الحديدية.. وقد كان من وصيته قبل موته: ألَّا يؤذن لزوجته برؤيته.

* * *

من أرق وثائق الطلاق في التاريخ

(بسم الله الرحمن الرحيم).

يقول عبد الله الراجي رحمته. المدعو: بأبي البركات ابن الحاج:

اختار الله له. ولطف به:

إن الله جلت قدرته. أنشأ خلقه على طبائع مختلفة. وغرائز شتى.

فمنهم السخي. والبخيل.

وفيهم الشجاع. والجبان.

والغبي. والفطن.

والكيس. والعاجز.

والمسامح. والمناقش.

والمتكبر. والمتواضع.

إلى غير ذلك من الصفات المعروفة من الخلق.

فكانت العشرة لا تستمر بينهم إلا بأحد أمرين:

إما بالاشتراك في الصفات. أو في بعضها..

وإما بصبر أحدهما على صاحبه. مع عدم الاشتراك.

ولما علم الله أن بني آدم على هذا الوضع.. شرع لهم الطلاق ليستريح من عيل صبره. على صاحبه: توسعة عليهم. وإحساناً منه إليهم.

فـلأجل العمـل على هذا: طـلق عبـد الله محمد أبـو البركـات ابن الحاج. .
زوجـه: الحرة. العـربية. المصـونة. عـائشة بنت الشيـخ. . الـوزيـر. . الحسيب. النزيه. الأصيل. الطاهـر. القدس. المـرحوم. أبي عبـد الله أبي إبراهيم الكنـاني. طلقة واحدة: ملكت بها أمر نفسها:

عارفاً بقدرها. .

ونطق بذلك. . إراحة لها من عشرته.

طالباً من الله أن يغني كلاً من سعته.

وشهد على نفسه في صحته. وجواز أمـره «كامـل وعيه» يـوم الثلاثـاء أول يوم من شهر ربيع الثاني عام إحدى وخمسين وسبعمائة».

* * *

الحل الإسلامي

ويجيء الأمر بالمحافظة على الصلاة تعقيباً. . وأثنـاء الحديث عن مشكـلات الأسرة. . نظراً لارتباط الصلاة بمستقبل الأسرة . .

جاء في حاشية الجمل:

(ولعل الأمر بـالصلوات وقع في تضـاعيف أحكام الأولاد والـزواج لئلا يلهيهم الاشتغال بشأنهم عنها).

وهو ما ذهب إليه الشربيني في تفسيره.

* * *

وأذكر هنا ما قلته لأحد طلابي منذ ثلاثين عاماً:

كأنما جاء الأمر بالمحافظة على الصلاة. . من حيث كانت إقامتها والمحافـظة عليهـا عاصمـاً من القلق والتمزق. . ونـاشراً على البيت ظـلالاً من الود المؤنس. . الذي تتراجع أمامه كل بوادر الخلاف. . فلا يكون طلاق ولا شقاق.

ورحم الله ذلك العابد الزاهد الذي قال:

إذا رأيت الرجل يسرع في صلاته. . فترحم على عياله!!

* * *

ماذا بعد رمضان

من حق المسلم اليوم أن يفتح قلبه للحياة راضياً . .

من حقه أن يحرك لسانه بالذكر وقلبه بالشكر . . بعد أن استجمع قوته فاقتحم العقبة ثم أشرف على الغاية . .

لقد جرد نفسه الأمارة من أسلحتها وخضد شوكتها فأصبح في مملكته سداً يباشر سلطاته حراً في سلوكه . . طليقاً من إسار الشهرة وتحكم الهوى .

أجل . . من حق الصائمين والصائمات الذين جمعهم الحرمان أياماً أن تجمعهم المتعة البريئة يوماً . . يوماً يكون لهم عيداً . . عيداً يعود في صحبة الإحساس بأداء الواجب فتزداد بهجة القلوب . . ويستأنف الجميع رحلة جديدة أقوى ما يكونون إرادة . . وأنضر ما يكونون شباباً .

وإنها لساعات كريمة مباركة . . تلك التي يجتمع فيها العابدون الحامدون السائحون . . تربطهم مشاعر الجنود الذين حملوا الراية معاً . . وخاضوا معركة واحدة . ثم إذا هم بعد أن يهدأ ترابها وتضع أوزارها يجلسون متحلقين في استرخاءة وادعة :

يتدارسون أسباب النصر . ويتذاكرون أخوة النضال . . ويتذوقون معاً حلاوة النجاح .

وأي نجاح أروع من انتصار الإنسان في معركته مع نفسه . لقد استطاع في صيامه أن يعبِّد الطريق إلى أعماق هذه النفس . . ليفجر فيها ينابيع الشوق إلى الفضيلة . . إلى عزة الخير . وعدالة الحق ـ ورواء الجمال ـ وها هي ذي النفس

تظهر على حقيقتها كما خلقها الله عز وجل.

إنها تنطلق الآن طواعية إلى الفضيلة بعد أن تمرست بها فعلاً خلال شهر رمضان..

ولم يبق إلا أن تواصل المسير في هذا الطريق الذي مهده الصوم.. فلا تمكن الهوى بعد ذلك من طمس معالم الفطرة كما هي..

وهذا كسب للإنسان.. وفوز.. يقوده إلى فوز. وسوف يكون الصائم الذي انتصر في معركته مع نفسه داخلياً.. قادراً بإذن الله على إحراز انتصارات أخرى مماثلة على أعداء يقعدون له كل مرصد.

ومن هذه اللبنة القوية تتكون خير أمة أخرجت للناس.. وينشأ المجتمع المسلم المتكامل. الذي يخرج اليوم من تجربة الصوم أنصع جوهراً وأصلب عوداً.. وكيف لا والمسلم يحس اليوم أن في أعصابه تحملاً.. وفي إرادته قوة على النضال في أعقاب المشاركة الوجدانية.

أي أنه أصبح عضواً في جسم كبير.. جندياً في جيش متأهب.. وإنه ليأخذ منذ اليوم موطنه.. فإذا كان في الساقة كان في الساقة.. وإذا كان في المقدمة كان في المقدمة..

وعن هذا الإحساس بالجماعة يتولد شعور آخر بالمسؤولية:

مسؤولية القادرين والفقراء أيضاً تجاه وطن احتواهم جميعاً.. وهذا ما تتكفل به زكاة الفطر:

إن الفقير ليخرج من ماله في هذا اليوم.. يعلو بيده لتعطي.. بعد أن كانت قبل ذلك ذليلة تأخذ..

ولعمري.. إنها لفرصة ذهبية تتيحها الأقدار للفقير اليوم.. حتى يباشر ساعة عملية الإعطاء.. فيمارس وهو يعطي شعوراً من الإعتزاز بالنفس والإحساس بالكيان. ولعله حينئذ يذوق لذة تفوق لذته حين كان يأخذ.

وشتان بين متعة يحس بها سيد حر يمنح دفقة من الحياة.. وبين نشوة عارضة يستشعرها عبد ذليل يستجدي هذه الحياة..

﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً. . هل يستوون. . الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾[1] .

وضرب الله مثلا رجلين: أحدهما أبكم لا يقدر على شيء. . وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير. . هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم. .

﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾[2] .

﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً﴾[3] .

فليعمل الفقير وليتفرد في عمله. . ليجدد نفسه في صحبة ذلك الإحساس. . فيعمل ليكتسب. . لينفق من سعته حتى يمنح الحياة على قدر ما يأخذ منها. .

وبذلك يتجدد شباب المجتمع. . ويزداد طابور الآملين العاملين امتداداً. . فتدور آلات المصانع. . . وتورق ثمرات الحقل. . وتزهر أسواق التجارة. . وتلك عبرة الساعة. . من زكاة الفطر.

إنها عودة الروح إلى أجزاء في جسم المجتمع أصيبت بالشلل يوماً ثم تأخذ اليوم طابعاً عملياً. . ويبدو الجميع صفاً واحداً كالبناء المرصوص يشد بعضه بعضاً. . وتفتح الحياة عينيها في هذا اليوم لترى الثوب الجديد يزهو به الواجدون والفاقدون. . . وقطعة الحلو. . ودمية اللعب في يد المسكين واليتيم. . . كلهم في حق المتعة سواء.

وهنا تبدو ثمرات الصيام ـ مجسمة شاخصة كسلطان بين على نجاح التربية الإسلامية في تكوين المجتمع الصالح وتشير في ذات الوقت إلى أهمية أعيادنا:

فنحن لا نتخذ من أعيادنا سكراً ولهواً معيباً. . يتجاهل القيم الجوهرية التي يوحي بها العيد. .

---

(١) سورة النحل، الآية: ٧٥ .

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٠٠ .

(٣) سورة هود، الآية: ٢٤ .

الإبــاء . . فطرة العربي

ذهب الأصمعي يـوماً يـريد التثبت من صحـة الفعـل «استخـذى» لـدى بعض الأعراب في البادية.

قال: فسألت أعرابياً:

أتقول: استخذيت. . أم. . استخذأت؟

فقال الأعرابي: لا أقولهما!!

قلت له: ولم ؟!

قال: لأن العرب لا تستخذى!!

وهكذا يبدو خلق الإباء أصيلاً في كيان العربي الذي رفض النطق باللفظ ـ مع صحته ـ من حيث كان مدلوله دخيلاً على طبيعته! ويعود الأصمعي الـذي جاء يتلقى درسـاً في اللغـة بـدرس في الـوطنيـة. . من الـواقــع. . وقبـل أن يتفلسف حــولـه الدارسون. . الذين يديرون القول في كل اتجاه تحديداً لمعالمها.

ثم تتوارى هذه السفسـطة. . وتبقى الوطنيـة والإباء بمعنـاهما العميق. . كمـا رسمته فطرة العربي. . الذي ينصت إلى أعماق فطرته فيتلقى منها صحة المعاني. . بلا حاجة إلى ما يثرثر به الدارسون. . الذين يرددون صوت سيدهم. . عبر الحدود!

هذه الفطرة البسيـطة بساطـة الخيمة على رمـال الصحراء المتفتحـة للحياة. . والقائمة على أصولها على نحو ما قال إقبال:

اضرب خيمتك حيث شئت في الصحراء. .

ولتكن خيمتك قائمة في عمدك وأطنابك. .

ولا تنس أن استعارة الأطناب والعمد من الخارج. . حرام. .]

وقد راح يمارس الحياة مطبوعاً بطابع مسكنه البسيط. .

ومن خلاله مارس أرقى الأدوار في تاريخ الإنسان وأرخ لمعاني التحمل وكيف استخف بمعاني الاستسلام على ما يقول العربي الجالس على باب خيمته حين سئل:

ماذا تفعل إذا اشتد بك الحر؟

فقال: أغرس في الأرض عصاي. . ثم أضع فوقها ثوبي. . واستنشق الريح. . فكأنني في إيوان كسرى!!

إن خيمة من الصوف. . وعيداناً من الجريد. . لا تساوي شيئاً. . بيد أنها تبدو في عينه أجمل من كل ما حواه القصر المنيف من رياش وأثاث. .

وإذا هو في ظل خيمته يتمتع بحريته. . وما فاته بعد الحصول عليها شيء يبكي عليه. . من جنس ما يدل به سكان إيوان كسرى. . هؤلاء الذين لا يعرفون من الحرية إلا اسمها. . بل ويرتكبون باسمها جرائم تأباها طبيعة الإنسان. .

إنهم ينامون على السرر. . ويستظلون بالأشجار. . لكن ذلك يتم داخل قفص كبير. . اسمه إيوان كسرى. . وما قيمة النعمة من وراء القضبان. .

* * *

إن العيش في أغلال المراسم والتقاليد سجن للإنسان. . وسيان أن يسجن الإنسان في قصر. . أو في مغارة أو مدخل. . كلاهما كبت يئد مواهب الإنسان!

وذلك هو الفرق الجوهري بين الطبيعة العربية المتفتحة عبر الصحراء. . وفي ظل خيمة تداعبها الرياح. . وبين طبيعة أخرى تنمو في جو صناعي خانق. . استحدثته المدنية الوافدة. . وتشكل طباع الناس هناك بمعاني الاستسلام والبرود. . والتخاذل. .

ذات يوم تناقش المؤرخ التركي «أنور باشا» مع مؤرخ تركي آخر في المفاضلة بين العرب والعجم. . فكان ميل المؤرخ أنور باشا إلى تفضيل العرب. . وكان

الآخر مع العجم.. وأخذ كل منهما يدلي بحجته. فقال أنور باشا لخصمه في الاستدلال على شمم العرب:

انظر إلى العجم في لقائهم أمراء الدولة.. كيف يخضعون أمامهم. وينكسون أبصارهم، ويكادون يقعون على الأرض جثياً.

وقابل ذلك بموقف العرب إذا لقوا الولاة. فإن العربي يقابل الوزير ورأسه مرفوعة.. ويمد يده لمصافحته.. كأنه يصافح أحد أقرانه.. وإنك لتجد هذا في كبيرهم وصغيرهم (سجية تلك فيهم غير محدثة) لا يعرفون الذل.. لا ما ظهر منه ولا ما بطن.. ولا يتحملون التكاليف والرسوم التي عند الأمم المتقدمة في الحضارة.

نشأوا على هذا من آلاف السنين.. وأبوا أن ينتقلوا عنه..

قال «بيار لوتي» الكاتب الفرنسي وقد سألوه عند احتضاره:

أية أمة أحب إليك من الجميع؟

فأجاب: العرب! لأنهم لم يغيروا أطوارهم من آلاف السنين.. وكيف يغيرون أطوارهم وهي من أثر سكنى الصحارى والضرب في الفلوات ومجاورة الطبيعة القحة.. والنشوء على الفطرة الأصيلة.. وعدم استشعار الهيبة).

وفي هذا الجو الحر الطليق انبجست فطرة العربي عيوناً ثرة بماء الحياة التي روت في ظل الإسلام غلة الظماء.. وانطلق العربي الأبي على فرسه.. يطأ بأرجله بساط الحرير في إيوان كسرى.. ليسقط بإسلامه قيماً عفنة على ما يقول ربعي بن عامر لكسرى.. وفي عقر داره:

جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد.. إلى عبادة الرحمن.. ومن ضيق الدنيا إلى سعتها.

وهكذا تثبت الأيام أن العربي الذي جلس أمام خيمته متصوراً أنه في إيوان كسرى.. لم يكن تائهاً في أحلام يقظته.. ولم يكن يجتر أضغاث أحلام..

لكنه انطلق في صحبة عقيدته.. ومن خيمته رأساً إلى وكر الطغيان.. ليلزمه كلمة التقوى.

وإذا كانت الأشياء تتميز بضدها . . فإن هذه الطبيعة الأصيلة لتبدو في أوج عظمتها حين تقارن بطبيعة اليهود . . كما تعبر عنها أيضاً . . منازلهم؟

لقد أفاء الله نعمه على اليهود زمناً . . فلما جاءهم ما عرفوا . . كفروا به . . وفي التعبير عن ذلك الكفر وجدناهم يواجهون الإسلام بأخلاقهم الملتوية الجانحة . . تماماً كما كانت بيوتهم هناك .

فبينما يمد العربي قدميه في مهب ريح سلسال . . نرى بيوت اليهود تتلوى كالأفاعي . . وتتلوى كالحرباء! تتداخل أبوابها . . ومنافذها . . على نحو جعل من طبيعة اليهودي صورة لها . . بكل ما تحمله من تعقيد . . والتواء .

ولا نتغنى هنا بالحرية ـ رغم أنها مطلب عزيز ـ لكننا نركز على ما أثمرته الحرية من قيم جعلت من المسلمين خير أمة أخرجت للناس . .

وكيف كانت الحرية المتاحة محضناً لمعان . . في القوة . . والوفاء . . والإباء . . فوق ما يتصور الناس حتى في منامهم!

لقد ظل الأخطل ينشد في بحبوحة النعيم على أرض الدولة الإسلامية ويقول :

ولست بصائم رمضان عمري ولست بآكل لحم الأضاحي
ولست بقائل ما عشت يوماً قبيل الصبح حي على الفلاح

قال ذلك . . ولم ينله أحد بسوء . .

فالفطرة العربية المسلمة تستمد من ذاتها قوة تواجه بها الرأي المخالف بمثله . . حتى يسفر الحوار عن وجه الصواب . . ولا تلجأ إلى ما يلجأ إليه الضعاف من تحكيم القوة الدموية في فض النزاع الفكري . . فأشد الرجال فشلاً أولئك الذين يلجأون إلى التصفية الجسدية حلاً لنزاع قائم . .

وأقواهم شكيمة ذلك الذي يحتوي الجبناء . . فإذا هم منه في بحر زاخر . . بلا حدود!

إنه يعيش مع فكرته . . التي تسري دماً في عروقه . . وتتحول في كيانه إلى روح يموت في سبيلها . . بل ويستعذب العذاب انتصاراً لها . . وذلك في مثل ما يُروى عن ابن تيمية حين قيل له :

إنَّ أعداءك يأتمرون بك ليقتلوك . .

فقال:

إن يقتلوني.. فالقتل شهادة!

وإن يسجنوني.. فالسجن عزلة!

وإن ينفوني.. فالنفي سياحة!

إنها منح يلبسها الله تعالى ثوب المحن.. حتى لا يحسدنا الناس عليها..

وكان ابن تيمية رضي الله عنه بهذا القول تفسيراً حياً لقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿الذين قال لهم الناس إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم. إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾[1].

* * *

---

(1) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣ - ١٧٥.

شيوخ زمان
وبعض شباب اليوم

قفز الشيخ الكبيرُ قفزة خطرة ظنها الشاب مفضية به إلى الهلاك.. فلما أشفق عليه. قال له الشيخ:

هذه جوارح: حفظناها في الصغر.. فحفظها الله علينا في الكبر!

* * *

إن الفتى هنا يمثل جيل «التليفزيون» الذي سجنته الرفاهية داخل علبة مغلقة في البيت.. أمام جهاز فرض عليه.. فأضر بصره.. وحبس دمه في عروقه.. وجمد ساقيه ويديه.. فلا تكاد تمارس من شؤونها إلى التافه الصغير.. ولو أنه فكر في النهوض ليعُبّ من الهواء الطلق شدته إلى السجن المفروض برامج جذابة ملحة لا يستطيع عنها حولا.. ودعك من الذين يشربون فيسكرون.. ويحطمون بالسكر ما تبقى من العافية.. فهم خارجون من حلبة السباق!

* * *

من خلال هذا الضعف توقع الفتى هنا أن قفزة الشيخ الكبير مجازفة قد يكون من ورائها الهلاك!

* * *

ويلفت الشيخ نظره بقوة فيهدىء من روعه أولاً: لا تخف!

ثم مع بيان السبب الكاشف عن هذه القوة المعمرة.. لقد كان الشيخ من جيل لم يبذر نعمة الصحة صغيراً فكان جزاؤه ما ترى من قوة الاحتمال التي بقيت صالحة للاستعمال إلى آخر العمر..

كان ينام مبكراً . . فيأخذ حظه من النوم . .

ويستيقظ مبكراً . . ليظفر بقشطة النهار تاركاً اللبن للآخرين !

لا يأكل حتى يجوع .

وإذا أكل لا يشبع . .

لا يشغل قلبه بالحقد على الآخرين . . وكيف يحقد وهو يصرف وقت الحقد في عمل ينافس فيه إخوانه هؤلاء بأعمال صالحة مثلهم يسعد بها المجتمع .

* * *

التدريب المستمر

كان الشيخ كأمثاله ـ دائم التدريب العنيف . . لتبقى لياقته العسكرية في أفضل حالاتها . .

قال رجل لعقبة بن عامر :

تتردد بين هذين الغرضين . وأنت شيخ كبير . يشق عليك؟

قال عقبه :

لولا كلام سمعته من رسول الله ﷺ لم أعانه .

قال : وما ذاك؟

قال : سمعته يقول :

«**من تعلم الرمى فتركه . فليس منا**»[1] .

* * *

إن عقبة بن عامر يجدد شبابه بالتدريب على إصابة غرضين نصبهما . ويتردد بينهما . . وما يفرضه ذلك من معاناة . ثم هو يتدرب «على المكشوف» وليس في ظلام الليل . . بعيداً عن الرقباء . .

ويرصد ذلك كله : لله ولرسوله . .

---

(١) أخرجه مسلم ٦/٥٢ .

وفضلاً عما يحققه التدريب من احتفاظه بلياقته البدنية.. فهو يحيي سنة من سنن الرسول ﷺ..

ولو نسي الرمى الذي تعلمه. فهو معزول عن الأمة. التي نال شرف الانتساب إليها.. وما أكثر السنن التي لا بد من احيائها.. لكن الشيخ العجوز يختار من السنن أشقها.

وأعودها على الأمة بالخير.. عكس ما يلجأ إليه بعضنا حين يختارون من السنة ما لا يكلفهم مالاً ولا عناء!

وهم مستعدون أن يخاصموا المجتمع من أجلها.. وما بينهم وبين هذا المجتمع من خلاف على سنية ما يفعلون.. لكن القضية هي:

بأية سنة نبدأ؟

وما هي السنة اللائقة بشاب ناشىء متحرك.. عامل أمل؟

هل هي تلاوة القرآن بين القبور؟. أم هي محو أمية الجاهل.. ومساعدة الضعيف.. والعمل على إصلاح الدنيا.. بهذا الدين؟!

تلك هي نقطة الخلاف.. ولا خلاف!

* * *

أشياخ يفرضون وجودهم

رفض أبو الأسود الدؤلي لما طعن في السن أن يقعد في البيت مع الخوالف.. وقرر أن يعايش المجتمع.. ويكون له «حضور» فيه.. بدل أن يكون حلساً من أحلاس البيت!

كان يركب إلى المسجد. وإلى السوق.

فقال له رجل:

أراك تكثر الركوب.. وقد ضعفت عن الحركة. فلو لزمت منزلك كان أودع لك.

فقال له الأسود: صدقت.

ولكني أرجو:

قوة أعضائي.

وأجمع من أخبار الناس ما لم أسمعه في بيتي.

وأستنشق الريح.

وألقى إخواني.

ولو جلست في بيتي:

لاغتم أهلي..

وأنس بي الصبي.

واجترأ علي الخادم.

وكلمني من لا يهاب كلامي لإلْفِهِم إياي. وجلوسهم عندي. حتى لعل العنزات تبول عليّ فلا يقول لها أحد: هش!!

* * *

فانظر كيف خرجت بالرجل كرامته من البيت إلى ساحة المجتمع.. واقياً نفسه من استهانة أهله به.. جاعلاً لأيامه طعماً بهذا التطواف وهذه الحركة المتجددة.. شاهداً في نفس الوقت بمدى حرص الآباء على أن يظلوا في بؤرة الشعور دائماً..

يفرضون احترامهم على من حولهم..

وتبقى شخصياتهم على العين والرأس ما بقوا على قيد الحياة.

* * *

شيوخ اليوم!

وما زال الخير في شيوخنا إلى يوم القيامة.. لأنهم من أمة محمد ﷺ:

رأيت أحدهم وقد نظر إلى ما نقيمه من حفلات.. وما نلقيه من أناشيد.. وما ننظمه من استعراضات في مختلف المناسبات.. وفي ساحة المدرسة..

رأى هذا فقرر أن يتخذ القرار الصعب:

تجاوز حفلاتنا وتجمعاتنا ليتبرع بقطعة أرض.. بنيت عليها مدرسة شق بها ألف طريق إلى العلم..

وإذا كانت الملائكة.. حتى الحيتان في بحورها.. والنمل في جحورها تستغفر لمعلمي الناس الخير.. فإن لهذا الذي مهد السبيل نصيباً من هذه المغفرة.. نرجو مثله لمن سار على دربه كفاء ما ينجز من عمل وما يحقق من أمل.



رجال يطلع من جبينهم القمر

نشرت الصحف نبأ رجلين من اليابان حكم كلاهما على نفسه بالإعدام شنقاً:

أما أولهما: فلأنه أهمل في عمله إهمالاً ترتب عليه سقوط قطار من فوق جسر خشبي.. راح ضحيته ستة أشخاص.

وأما الثاني: فأحد رجال الأمن: فرط في مهمته تفريطاً أحدث خلخلة في جهاز كان يشرف عليه.. فكان ما كان من فساد.

وإذا كنا نحيي مثل هذه الضمائر الحية.. والتي تشكل في داخل الإنسان محكمة: تصدر الحكم ذاتياً.. بل وتنفذه في نفس الوقت.. وإذا اتخذنا منها نقطة عتاب نوجهه إلى أقوام استترت فيهم الضمائر وجوباً.. فلم تعد صالحة للتطهير والتقويم.. إذا كنا نفعل ذلك.. فإننا لا نسلم بالنتيجة التي انتهت إليها هذه المحاكمة.. لأن فكرة الانتحار مرفوضة ابتداء. وإلا فكم يكون المجتمع سعيداً بمثل هذه النماذج لو بقيت حية.. ليدب ا لنشاط في الجسد الهامد وفي ظلها.. ولا بأس أن تأخذ عقابها المقرر توبة نصوحاً.. تستأنف بعدها رحلة العمر أكثر جدية وأحسن عملاً.

وهذا هو منطق الإسلام.. الذي تمثله رجال فكانت لهم ضمائر حية تؤرقهم.. بينما لم تكن الجريمة التي ارتكبوها قتلاً ولا فساداً في الأرض.. وإنما مجرد خاطر يمر بالذهن عفواً.. خاطر لا يترتب عليه فساد ولا أضرار بالآخرين.. وإذا بالضمير الذي صنعه الإسلام مفتح العين.. يراقب.. ثم يعاقب! مع بقاء المخطىء حياً يرزق.. ماضياً على طريق الإصلاح.. مجدداً شباب الأمة بهمته العالية.. وضميره الصاحي:

ذات يوم قال رجلٌ صوفي :

الحمد لله!

قالها لما علم نجاة دكانه من حريق التهم دكان جاره! وكان الأمر في حس الرجل على ما يقول الفضيل بن عياض:

(أخشى أن يقول الرجل) لا إله إلا الله. . أو سبحان الله فيدخل بها الجحيم! ولقد أحس الرجل بأنه فعلاً من أهل الجحيم. . فحاكم نفسه وحكم عليها بالاستغفار الدائم من هذا الذنب ثلاثين عاماً؟!

لماذا هذا العقاب. . مع أن الرجل لم يرتكب إثماً ولم يقل منكراً من القول وزوراً؟!

إن الضمير هنا يواجهه بما يلي:

١ ـ المفروض أنه مسلم. . وإذن فعليه أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه. . نفس ما يحب لذاته. . ولا يكفي أن يكون مثله.

٢ ـ وحين قال الحمد لله. . فمعنى ذلك غياب الشعور الوجداني. . وهو الأخوة الجامعة الرابطة له بإخوانه في الدين.

٣ ـ وإذن فالرجل على خطر عظيم يتهدد إيمانه. . لأنه طوى قلبه ـ حين حمد الله ـ على مصلحته هو. . ومعنى ذلك أنه شاعر بنفسه دون المجتمع الذي يعيش في ظله.

٤ ـ والنعمة المشكورة هنا نعمة محدودة تخصه هو. . فبقيت «أنا» بارزة. . واختفت «نحن» بكل ما تحمله من تعاون وإيثار.

٥ ـ من أجل ذلك ألزم نفسه بالاستغفار بسبب هذا الخاطر إشعاراً بضرورة وجود هذه المشاركة الوجدانية التي ضاعت منه لحظة من زمان. .

الاحتكار. . وكراهية المطر

ولقد احتكر «المسور بن مخرمة» طعاماً كثيراً. . ورأى ـ وهو يمنّي نفسه بالربح الوفير ـ رأى سحاباً في الخريف. . فكره ذلك خشية أن ينزل المطر. . فتكثر الثمار. . فتبور بضاعته أو يقل ربحها!

وعلى الفور يتقدم الضمير الصاحي ليضع الرجل نفسه في قفص الاتهام في محاكمة سريعة وجادة:

قال يعاتب نفسه:

ألا تراني كرهت ما ينفع المسلمين؟

والجواب كان نعم :

وجاء الحكم عادلاً:

فقد قرر الرجل التنازل عن ربحه من هذا الطعام.. ولم يهدأ ضميره الذي ما فتىء يلاحقه بالعتاب المر.. حتى عرض الأمر على عمر رضي الله عنه فدعا له بخير.. وعندئذ هدأت نفسه..

وماذا فعل ثابت بن قيس ـ الصحابي الجليل ـ حتى حكم على نفسه بالسجن في بيته لا يبرحه.. ودموعه الغزار تبلل ثيابه؟

إنه لم يفعل شيئاً..

كل ما هنالك أنه لما نزل قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾[1] .

وعندما استمع إلى الآية الكريمة اختفى..

فلما استدعي لمقابلته ﷺ قال:

إني امرؤ جهير الصوت.. وقد كنت أرفع صوتي فوق صوتك يا رسول الله.. وإذن فقد حبط عملي وأنا من أهل النار!

فانظر كيف بلغت حساسية الضمير حداً طرح بصاحبه في النار مقدماً.. مع أنه لم يرفع صوته.. وإنما كان صوته كذلك طبعاً! ولكنه ﷺ لا يوافقه على النتيجة.. ويطمئنه قائلاً:

«إنك لست منهم.. بل تعيش حميداً.. وتقتل شهيداً.. ويدخلك الله الجنة».

ثم.. وماذا على المضيف لو أخذ من جاره قبضة من تراب ينظف بها يده في البادية؟

---

(١) سورة الحجرات ، الآية: ٢ .

الجواب: لا شيء!.

نعم.. لا شيء في تقدير رجال اليوم الذين يأخذون حياتهم بالطول والعرض.

لكن العابد العارف «كهمس» يقيم الدنيا ولا يقعدها.

ولننظر السبب!

يقول لصاحبه «عمارة»:

يا أبا سلمة: أذنبت ذنباً.. فأنا أبكي عليه منذ أربعين سنة!

قال له عمارة: وما هو يا أبا عبد الله؟

قال «كهمس»:

زارني أخ لي.. فاشتريت لطعامه سمكاً بدرهم.. فلما أكل قمت إلى حائط «بستان» جار لي.. فأخذت منه قطعة طين.. فمسح بها يده.. فأنا أبكي عليه منذ أربعين سنة!!

رجل يروي الأرض بدموعه من أجل قطعة من الطين.. لن تنقص الأرض.. ولن يكتشفها صاحب البستان.. ثم إنه لم يضفها إلى بستانه على حساب جاره.. ولكنها كانت حسبة لله.. وتكريماً للضيف!

وهو هو الذي سقط منه دينار في الطريق.. فلما رجع في طلبه وجده.. فلما صار في يده قال:

ما أدري أهو ديناري.. أم دينار غيري.. ثم تركه ورجع إلى المدينة.

وبعد: فإذا كانت أجهزة الإعلام في الدول الأخرى تبرز مآثر أبنائها.. بل وترصد لها ميزانيات ضخمة تمكّن لسمعة الدولة في الأرض.. فأحرى بأمة الإسلام أن تبرز هذه القمم العالية..

إننا قد نرصد الجوائز للتاجر الأمين.. والموظف المجتهد.. وأحسن منه أن تصاغ مثل هذه النماذج في ألوان أدبية واجتماعية وعلى أجهزة الإعلام أن تجعل من الأمانة والورع والتجرد واقعاً ملموساً.. شاهداً بقدرة الإسلام على صياغة النفوس على تقوى من الله ورضوانه.. لتظل قدوة حسنة تدعو إلى الله تعالى بالعمل..

ألا وإن عمل رجل في ألف رجل.. أبلغ من وعظ ألف رجل في رجل!

من السفح إلى القمة

روى الترمذي قال:

(جاء فقير إلى النبي ﷺ يسأله.

فقال له: أما لك مال؟

قال: «لا».

ثم أعاد عليه السؤال أما لك مال؟ فقال: لا.

عندي حلس - بساط - نجلس على بعضه. ونتغطى ببعضه. وقعب - قدح - نشرب به.

فقال: إيتني بهما. فجاء بهما. فعرضهما على من كان عنده قائلاً:

من يشتري مني هذين؟. إلى أن باعهما بدرهمين فأعطاه إياهما وقال:

اشتر بأحدهما طعاماً لعيالك. وبالآخر فأساً.

وأمره بأن يعود إليه. فعاد إليه.

فوضع له خشبة في الفأس فقال:

اذهب واحتطب. ولا أرينك خمسة عشر يوماً.

فذهب ثم عاد إليه بعد خمسة عشر يوماً. ومعه عشرة دراهم. فقال:

يا رسول الله: بارك الله لي فيما أمرتني به. فقال:

هذا خير أن تأتي يوم القيامة وفي وجهك نكتة المسألة)

* * *

تمهيـــد

على قدر حبه ﷺ للفقراء. فقد كان ـ وبنفس القوة ـ يكره لهم أن يسألوا.

والحب والكراهة هنا نابعان من تقديره ﷺ لكرامة الفقير. الذي تحمل معه مسؤولية دين العز.. ويجب أن يظل بالإيمان عزيزاً.. فلا يستبدل الذي هو أدنى من عرض الدنيا.. بالذي هو خير من فضائل الإيمان.

وما أصدق ما قاله المتنبي:

ومراد النفوس أصغر من أن نتعادى فيه أو نتفانى.

غيـر أن الفتى يلاقي المنايا كالحات ولا يلاقي الهوانا

* * *

المشكلة.. والحل

ما هي المشكلة هنا.. وما هو الحل الإسلامي؟

القضية هي: رجل فقير. خلف من ورائه ذرية ضعافاً.. لا يجد لهم ثمن الخبز ولا ثمن الدواء.

وحين سمحت نفسه أن يجرد البيت من أخص ضروراته.. وأن يترك أولاده يفترشون الأرض. ويلتحفون السماء.. فقد تكشفت بهذه التضحية بواعث سؤاله:

فلم يكن محترفاً يطلب المال من طريقه الميسور..

لكنها الضرورة الملحة ألجأته إلى السؤال إلجاءً حين لم يجد في البيت ما يبيعه ليشتري القوت الضروري.

ووجد ﷺ نفسه أمام رجل:

لديه فضل طاقة..

ولكن بلا عمل..

وإذن فعزته توشك أن تتسرب مع كل قرش يسأله الناس لو فرض عليه

السؤال. . وعلى الدولة أن تقف إلى جانبه لتحل مشكلته حلاً يستبقي هذه العـزة. . ويستبعد كل حل يتهددها بالضياع.

* * *

فماذا كان الحل الإسلامي هنا؟

أ ـ لـو صرفـه ﷺ بلا معـونة. لكـان ذلك عـدواناً على حق الـرجل في بحث دعواه: فإن تبين صدقه أعطِيَ. . وإلا عوقب.

ب ـ ولو أنه عجل له معونة مالية يسكته بها. . لكان ذلك إرجاء للمشكلة التي سوف تتفاقم مع الأيام:

المشكلة التي يسهل حلها اليوم. . ليصعب اقتحامها غداً. وإذا كـان مُهمًّا أن تعطي رجلاً سمكة. . فأهم منه أن تعلمه صيد السمك!

جـ ـ فلم يبق إلا الحل الذي يصون كرامـة الرجـل وهو: مسـاعدتـه في إنشاء مشروع استثماري يُسلكه في طابور العاملين. . الذين يأكلون مما عملته أيديهم.

* * *

السهل. . الممتنع!!

ولم يشأ ﷺ أن يكون المشروع برأس مال أحد من الصحابة الحاضرين. .

وقـد كان من السهـل عليه ﷺ أن يستخـرج له من جيـوب الصحابـة ما يكفي لتغطية نفقات المشروع. . لكنه أراد أن يكون «وطنياً» مائة في المائـة. . برأس مـال الرجل نفسه. . ولو كان خرقته التي يتغطى بها. . وإناؤه الذي يشرب به!! وحتى لو ترك أولاده في البرد بلا غطاء خمسة عشر يوماً. . فليخوضوا معه تجربة مضنية لكنها مباركة بما أدخلت على البيت من حركة صار بها خلية نحـل. . وقدم للحيـاة أشبالاً مارسوا بأساءها. . حتى إذا دعاهم للجهاد داع كانوا أبطالاً بما منحتهم التجربـة من قوة.

* * *

الدولة مشغولة بأبنائها

دخل ﷺ طرفـاً في القضية حين عـرض هو السلعـة على من حضر. . وذلـك قوله:

«من يشتري.. مني.. هذين».

* * *

ونحس الآن بسعادة الرجل الذي رأى الدولة مشغولة به.. وبمستقبله. ولم تتركه وحده على الطريق.

ثم ها هو ذا ﷺ يصون كرامة الرجل حين ناب عنه في عرض السلعة.. ولم يتركه يعرضها هو.. فأعفاه من الإحراج.

مع ملاحظة أن الرسول لم يفرض السلعة.. كما أنه لم يحدد الثمن.. ليكون البيع والشراء حراً..

وإلا فلو أنه ﷺ فرضها على عثمان مثلاً.. أو حدد لها ثمناً مرتفعاً.. لتمت الصفقة بسلاح الحياء.. ولا يتم حينئذ للرجل ما نريده له من مشروع خالص من كل شبهة.. بريء من كل شائبة تبعيةٍ لأحد.. وإن كان صحابياً لا يمن ولا يؤذي!.

* * *

الثروة بين الاستهلاك والاستثمار

عندما قبض الرجل ثمن متاعه لم تتركه الدولة بلا توجيه.. ضماناً لنجاح المشروع.. أرشده الرسول ﷺ إلى أن يشتري بالنصف طعاماً لعياله تأميناً لظهره.

حتى إذا انطلق في الأرض ساعياً.. كان آمناً.

وقبل أن تأكل النفقة اليومية النصف الباقي. وخاصة في بيت كهذا ليس فيه حتى كوب يشرب به يأمره الرسول ﷺ أن يشتري به فأساً هي أداته للعمل المثمر الشريف.

* * *

الإمداد على قدر الاستعداد

وحين أثبت الرجل صلاحيته للمعونة.. ساعدته الدولة بخشبة الفأس يضعها الرسول بيده الشريفة تقديراً منه لرجل فرط في ضرورات البيت لكنه لم يفرط في ذرة كرامته..

وأثبت أنه طاقة معطلة تتطلع إلى الحركة لو مدت إليها الأيدي بالعون..

وها هي ذي أمته تستجيب له استجابة مشروطة بمبادرة الفرد أولاً . .

وإلا . فما أكثر الكسالى القاعدين الذين يتوقعون أن تمطر السماء ذهباً أو فضة . .

مع أن مفتاح الرخاء في قلوبهم وإراداتهم لو أنهم حركوها بالهمة العالية . . الباحثة عن الرزق في خبايا أرض الله الواسعة .

* * *

فترة الحضانة

إذا تصورنا أن الرجل حديث عهد بالعمل . . تبين لنا ضآلة خبرته التي قد تحمله على اليأس عند أول بادرة فشل . . ومن ثم يفسح له الرسول ﷺ في الأجل . . ضارباً للقائه موعداً متطاولاً . . ليمارس العمل بين الربح والخسارة . . والصعود والهبوط . . حتى إذا تمرس بالتجربة في هذه الفترة التي هي أشبه بفترة حضانة . . نضجت شخصيته . . إلى جانب ما يحققه من ربح وفير يشهد بقيمة العمل . . وأثره في ترقية الحياة .

فلما جاءه الرجل بعشرة دراهم . . كان عليها مزيد أغلى من المال وهو كرامته التي لم تمس . . ومقعد الصدق الذي تبوأه حين صار صاحب يد تملك . . وتعطي . . وأنت خبير بالمسافة الهائلة بين يده الراعشة السائلة بالأمس . . وبين يده اليوم . . المبسوطة بالعطاء . . وقلبه اللاهج بالثناء!

* * *

من دروس الاقتصاد إلى دروس الدعوة

اعترف الرجل أمام الرسول ﷺ بأن ما أمره به كان خيراً وبركة . . وإنه بالعمل بدأ عهداً جديداً . . في صحبة قيم أصيلة ما كان يعلمها إلا بعمله . . وهكذا يفعل الداعية الناجح :

إنه لم يلق على الرجل ابتداء موعظة في ثواب الصبر . ومزايا الفقر!؟

لكنه عاش همومه . . بل وقف إلى جانبه . حتى أنهضه من كبوته . . فلما أحس دبيب الكرامة يسري في دمه تحرك لسانه تلقائياً شاهداً بعظمة الداعية الذي لا يجعل همه الكلام يمضغه مضغاً!

ولكنه الداعية المحسن. . الإيجابي. . وهو كما قال العقاد:

(إن الإحسان إلى ذوي الحاجات فضيلة من أشرف فضائل العظمة الإنسانية. وأقربها إلى الصفات الإلهية.

لأنها قوة في العظيم تعمل عملها في إعانة الضعيف. ولا تعمل عملها في إذلاله وإرغامه).

* * *

القدوة الحسنة

وبعد:

فهل كان من الممكن أن يستجيب الرجل لتوجيه الرسول لولا أن الرسول جمع من قبله الحطب؟

لقد كان ﷺ أول المسلمين. .

فلما سبق إلى جمع الحطب لم يكن هناك في أمته من يأباه. .

(لقد كانت رحابة صدر النبي عليه الصلاة والسلام تسع الناس جميعاً. ولا تضيق بأحد من مختلف الطوائف والطباع.

سنة النبي الكريم الذي يدعو الناس جميعاً. ولا يخص منهم فئة دون فئة. ولا خليفة دون خليفة.

فكان يتقبلهم مرحباً بهم. مشجعاً لهم. راجياً أحسن الرجاء فيهم:

كلا وما فطر عليه. وكلا وما تؤهله له فطرته وشأنه. وقلما ذهبت هذه السماحة سدى في نفس مسلم أقبل على الإسلام سمح الإقبال. أو مشوب السماحة بشيء من عقابيل الجاهلية. فكان أول أثر من آثار هذا الكرم النبوي أن يتسامى المسلم إلى المنزلة التي رفعه ذلك الكرم النبوي إليها)[1].

* * *

---

(١) العقاد. عمرو بن العاص ٥١.

من الزلازل إلى علوى المنازل

كل شيء في الوجود يبدو ساعة الميلاد صغيراً ثم يكبر وئيداً:

النواة الضاوية غداً تصبح نخلة فرعاء.

والطائر الغض ينبت مع الأيام ريشه، ثم يخلف العش الضيق، وينطلق في مسرى الهواء بازاً .

والطفل الصغير يتخطى مراحل النمو صبياً فيافعاً ، ثم يستوي بعد ذلك رجلاً . بيْد أن الأحداث التي تلم بالأفراد والأمم لها شأن آخر :

إنها تبدو أول الأمر كبيرة كأنها الجبال الراسية، ثم تعود القهقرى صغيرة لا تكاد ترى.

وكأين من إنسان فجع في أمه وأبيه. وصاحبته وبنيه.. وتحتل النكبة مساحة النفس كلها. فتملك على القلب الجزوع أقطاره.. ولكن سيلاً من عواطف الأخوة وحنان الإنسان يشق طريقه إلى هذا الخافق المعذب.

فيغسل أساه.. ويطوي همومه ثم يحمله إلى الشاطىء البهيج تارة أخرى. ويعود إلى الفؤاد المعنى رشده الغارب ليرى به كيف أنه في نكبته لم يكن وحيداً وأن صدى آلامه قد رن في قلوب كبار.

وفي غيبة الآلام الضاغطة ينطلق به قطار الحياة مرة أخرى مخلفاً من ورائه أشباح الأمس تهرب مع الأشجار. إلى الأفق البعيد.

وهنا يستطيع أن يدرك فلسفة الحياة. عندما يمتحن الله أمة للمجد:

إن إحساسك بالكأس الحلوة يزداد إذا شربتها بعد أخرى مرة.

وكذلك. . إدراكك لمعنى المجد. وقيم الحياة. وكلما بذلت أمة في سبيلها: من الأموال والأنفس والثمرات كلما كان طعم الإنتصار ممتعاً.

وإزاء متعة الكفاح ـ وروعة الغاية ـ تطير بها الأشواق صاعدة في جو السماء. وتحملها الأجنحة الرفافة من وهدة السفوح إلى ذرا القمم.

ذلك بأن طبع الإنسان كالماء الدافق. . يطلب الهبوط دائماً. .

ولكن الله سبحانه وتعالى: بالعقبات. . بالزلازل يبوئه مكاناً علياً.

يشرف منه على آفاق أوسع. فيحيط برقعة من الكون أكبر. . فيعمق فهمه للمعاني ـ وتصح صلته بهذا الكون.

ليت شعري لو عاشت كل أمة آمنة مطمئنة، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان؟!

إن مناعم الحياة ستخلد بهم إلى الأرض حتماً. وتدور بخواطرها حول مفاهيم هابطة. من شهوة النفس، وحب الذات.

ولا ترف منها الروح إلى العالم الأسنى، ويظل القلب حبيساً خلف قضبان من الضلوع محدد الإقامة لا ينفعل بمعنى كريم.

وكيف تستطيع أمة ألفتَ روحها وقلبها أن ترقى إلى «الكرامة» التي اختص بها الله بني آدم؟

إن الطريق إلى هذه الغاية صعب المرتقى.

وإن أولى الناس بها للذين صابروا وكابروا الأحداث. الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى بالزلازل. . فنجحوا في هذا الامتحان!

وإذا كانت قواعد الرقي إلى درجات الدنيا هي: السن والكفاءة. فإن من قواعد السمو إلى درجات الآخرة:

كم حادثاً تخطيت. وكم عقبة اقتحمت؟

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم

البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه: متى نصر الله. ألا إن نصر الله قريب ﴾[1] .

وكأن الله تعالى يذكر الأمة بالأحداث:

ليصحو الغني فيبذل. وينشط الكسول فيعمل. ويهب الذكي فيخترع ويزايل الرئيس مكتبه الوسيم الأنيق ليمارس وظيفته هناك من فوق كثبان الرمال.

ويتحول العالم من مجادل في «مكتبه» إلى جندي في كتيبة. .

وتفتح عينيك لترى صورة جديدة للأمة فإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً. تحركت الأرض فتحركت معها النفوس فدارت الآلة وزايلها صدأ تراكم عليها أمداً طويلاً.

وزلزلت الأرض زلزالها. . وأخرجت أثقالها. . فأخرجت الإنسانيه فضائلها!

عندما يمتحن الله أمة للتقوى

كل فتى. . كل شيخ. . هاهم أولاء يهرعون إلى البذل، وتطفو على السطح معان في: الجود والشجاعة والرحمة، ويزداد إيماننا بالإنسان صانع التاريخ. .

هذا الذي لم تهزه النكبة وإنما ساقته إلى المجد سوقاً. وسرى الشعور الجماعي كالنار كالتيار في جسد الأمة فدبت على الأرض كتلة واحدة. .

لقد التقى الأمير بالمأمور، السالب بالموجب. فأضاء المصباح. . ووضح الطريق، وتناسقت الخطوات في صحبة تفاؤل غامر!

وفي ضوء هذه المعاني أفهم قوله تعالى:

﴿وبشر الصابرين: الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة. وأولئك هم المهتدون ﴾[2] .

بيد أن هناك دون هذه الغاية ألواناً من المتاعب:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥ ـ ١٥٦ ـ ١٥٧.

ولكنها «متاعب الصحة» وليست «متاعب المرض!»

إنها متاعب رجل حملته قدماه ساعات في هجير الشمس يبني لأمته مجداً.

وليست متاعب مترف تؤلمه قدمه من طول الرقاد على سرر مرفوعة. في ظل ممدود. وماء مسكوب!

وواجه المسلمون التطبيق العملي.. ودبر لهم القدر الأعلى محنة أخذت طابعاً عنيفاً..

وكانت في نفس الوقت منطلقاً لانتصارات عظمى. وكان ذلك في غزوة الخندق:

﴿هنالك ابتلي المؤمنون. وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾[1] وكان هذا الزلزال بداية مرحلة أكثر إيجابية في تاريخ الإسلام: فقد تحول المسلمون ـ بعد أن صقلتهم المحنة ـ من موقف الدفاع إلى قوة تستطيع تأديب العصاة في فارس.. وفي الروم أيضاً:

﴿وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديراً﴾[2].

وهكذا استحالت المحنة منحة!

وإنها لكذلك في مجال الطبيعة أيضاً:

ألم تر إلى الشجرة إذا أنت قلمتها أو شققتها؟ إنها تزداد ثمراً. وتسمق فرعاً:

والهواء: إنه يظل نسيماً عليلاً يداعب الغصون فإذا ضغطنا عليه اشتد.. وتحولت النسمة الرقيقة إعصاراً عارم القوة..

وما النكبة التي أصابت «الأندلس» إلا نوعاً من الضغط العالي تحول بعده الإسلام إلى إعصار تخطى الجبال إلى إيطاليا وفرنسا ونشر هناك بذور النهضة الحديثة وخفقت هناك للإسلام أعلام وهكذا يثاب «الأوربي» رغم أنفه!

وما لي لا أذكر قصة حياة أنبيائنا المرسلين عليهم الصلاة والسلام وكيف

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢٧.

اقتحموا العقبة فانتصروا: نذكرها وقد صورها صاحب الظلال قائلاً:

«آدم يخرج من الجنة باكياً في أعنف محنة يواجهها بشر.. ثم يصبح في الأرض خليفة.

ونوح: يضربه الملأ من قومه. حتى يغشى عليه.. ثم تكون نجاته بينما هلك الجميع.

والخليل: يلقى في النار.. ليخرج من الباب الخلفي إلى جنات ذات قرار ومعين.

والذبيح: يمد رقبته للذبح صابراً محتسباً.. وينزل الفداء من السماء..

ويعقوب: تذهب الأحزان بنور عينيه.. ثم يعود البصر الذاهب مع لقاء الحبيب..

ويوسف الوحيد الغريب.. يصبح: يوسف الصديق..

ومريم البتول: تواجه تهمة في أعز ما تملك فتاة شريفة، ثم يكون الاصطفاء، وتكون الطهارة».

وهكذا.. كانت حياتهم: وكذلك يجب أن تكون: على أشواك من غرائز البشر وزلازل الحياة ساروا، وإلى رفيع الدرجات وعلوى المنازل وصلوا، فتقدمي أيتها المصائب وأضيئي «ظلام» شعرنا.. ولكن لا تنسي أيضاً أن تبيضي سواد حياتنا.

* * *

في دوامة الخطر.. يزداد المعدن النفيس بريقاً

﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾[1].

﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾[2].

* * *

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٤.

عندما نسائل الواقع عن موقف الإنسان في مواجهة خطر متوقع.. فإن هذا الواقع يعطينا صورة هذا الموقف طبق درجة الإنسان في باب الإيمان:

فقد يفر الإنسان عند الشائعة هارباً خائفاً.. وقد يخاف.. لكنه يتجلد ثابتاً في مكانه.

وربما يعود بصبره.. ليمنحه الثقة بقدرته.. فيتقدم نحو عدوه متماسكاً..

وأروع من هذا كله:

أن يربو الإيمان في صدره.. على أوفى ما يكون الالتزام.. في اللحظة التي يحس فيها بالخطر الداهم!

أي إن اللحظة التي يجف عندها لعاب الجبان فرقاً.. هي نفسها التي تثير أشواق البطل إلى النزال..

بل وتزيد الإيمان عمقاً واتساعاً..

لأن ذلك الخطر يقترب به من الله تعالى.. فيزداد أنساً به. على ما يفيد قوله عز وجل:

﴿**وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾.

ونذكر هنا ما قال الشاعر البطل:

أقول لها وقد طارت شعاعاً — من الأبطال.. ويحك لن تراعي
فإنك لو سألت الخلد يوماً — على الأجل الذي لك لن تطاعي
فصبراً في مجال الموت صبرا — فما نيل الخلود بمستطاع

* * *

والنتيجة الحتمية هنا.. تذكرنا بسنة من سنن النصر:

فالذين صمدوا.. عادوا سالمين.

والذين حرصوا على الموت.. وهبت لهم الحياة!

* * *

وهكذا تكثر الخسارة في لحظات الجبن والتردد..

بينما يمسك الإقدام قلوب الهاجمين.. فيربط عليها.. فلا تزل معها الأقدام..

ثم يعودون إلى قواعدهم سالمين.

وذلك قوله تعالى:

﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾.

فإن عادوا.. عادوا بالحياة.. وبالغنيمة..

وإن غابوا.. كانوا شهداء.. تخلداً لشهادة ذكراهم.. وتجعل لهم لسان صدق في الآخرين.

بينما تتمرغ سمعة الجبناء في التراب.

* * *

وأساس ذلك كله أن الشجعان:

﴿اتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾.

* * *

ومن ناحية أخرى فإن الحق لا يمضي على طريق مفروش بالحرير..

ولكنه يكافح على طريق محفوف بالأشواك والمكاره.. فلا مكان في كتائبه للجبناء.. وإنما يتحمل مسؤوليته الأقوياء..

تبينت أن الحق إن لم تتح له ... بواسل يخشى بأسها. فهو باطل
لعمرك لو أغنى عن الحق أنه ... هو الحق ما قام الرسول يقاتل
أقمه وثبته وجاهد عدوه ... وذد عنه ذود الليث والليث صائل
ولا تنصرن الحق بالقول وحده ... فإن عماد الحق ما أنت فاعل

* * *

أولياء الله وأولياء الشيطان

﴿إنماذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾[1].

* * *

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.

لا يصح في ميزان العدل أن يكون من اتبع رضوان الله. كهذا الذي أدار ظهره لدلائل الهدى.. وعاد من رحلة عمره بسخط الله تعالى..

﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير. هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون﴾[1].

* * *

إن للخوف أثره في سلوك الإنسان.

وعن أثر هذا الخوف يتحدث الإمام محمد عبده فيقول:

(في الآية: التنبيه إلى الموازنة بين أولياء الشيطان. من مشركي مكة. وغيرهم.

وبين ولي المؤمنين. القادر على كل شيء. كأنه يقول:

عليكم أن توازنوا بين قوتي. وقوتهم. ونصرتي. ونصرتهم.

فأنا الذي وعدتكم النصر. وأنا وليكم ونصيركم. ما أطعتموني وأطعتم رسولي.

وفي هذا المقام شبهة تعرض لبعضهم فيقولون:

إن تكليف عدم الخوف. من تكليف ما لا يستطاع. ولا يدخل في الوسع.

فإن الإنسان إذا علم أن العدو الكثير، ذا العُدَد العظيمة. يريد أن يواثبه. وينزل به العذاب.. بأن رآه. أو سمع باستعداده من الثقات.. فإنه لا يستطيع ألا يخافه.

فكان الظاهر أن يؤمروا بإكراه النفس على المقاومة والمدافعة. مع الخوف.. لا أن ينهوا عن الخوف.

والجواب:

إن هذه الشبهة حجة الجبناء. فهي لا تطوف إلا في خيال الجبان.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٢.

فإن أعمال النفس من الخوف والحزن والفرح. . يتراءى للإنسان أنها اضطرارية. وأن آثارها كائنة لا محالة مهما حدث بسببها .

والحقيقة إن ذلك اختياري من وجهين:

أحدهما: أن هذه الأمور تأتي بالعادة والمزاولة. ولذلك تختلف باختلاف الشعوب والأجيال:

فمن اعتاد الإحجام عند الحاجة إلى الدفاع. . يصير جباناً.

والعادات خاضعة للاختيار بالتربية والتمرين:

ففي استطاعة الإنسان أن يقاوم أسباب الخوف. ويعود نفسه الاستهانة بها.

وثانيها: إن هذه الأمور إن حدثت بأسبابها. فالإنسان مختار في الأساس لها. والاسترسال معها. حتى يتمكن أثرها في النفس. وتتجسم صورها في الخيال. ومختار في مغالبتها. والتعمل في صرفها. وشغل النفس بما يضادها ويذهب بأثرها.

* * *

ولكن صمود العربي المسلم ما زالت له أبعاد أخرى:

فهو في اللحظة التي يكون الخطر المسموع واقعاً محدقاً به. مرئياً له. يكون أشد إيماناً.

وكلما زادت المحنة شدة. . كلما كابرها بإيمانه. وصابرها بعزيمته. وفي هذا يقول سبحانه:

﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليما﴾[1] .

إن المؤمنين بالله ورسوله يتجهون عند الخطر إلى الله تعالى. . يطلبون الشجاعة عوناً لهم. . على ما يمكن تغييره. .

ثم يتطلعون إلى الصبر الجميل طاقة تمنحهم الثبات أمام ما يصعب تغييره.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٢.

وفوق ذلك: فهم يتطلعون إلى بركات السماء.. ينشدون الهداية الإلهية.. التي تمنحهم القدرة على التفريق بين:

ما يمكن تغييره..

وما لا يمكن تغييره..

ليستقيم على طريق الحق خطوهم.. وليحتفظوا بالطاقة قبل أن تذهب وسط ضباب الأحداث بدداً.

* * *

حرمة الإنسان

أراد المتنبي أن يصور أفجر الناس فقال:

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستبيح دم الحُجاج في الحرم

وقد أصاب المتنبي كبد الحقيقة بهذا البيت الجامع، فمفهوم العبادة أمران هما: تعظيم الخالق، والشفقة على المخلوق.

وقد هدم هذا الشيخ الركنين كليهما.. أعني أنه لم يقدر الحق تعالى قدره، ثم أراق الدماء البريئة في الحرم الآمن.

وبهذا الفجور وتلك القسوة صار أفجر الخلق على الإطلاق.. حين غاضت في قلبه مشاعر تعظيم الخالق سبحانه.. بل لم يكن له قلب أصلاً عندما لوث يده بدماء الأبرياء.

وما حدث في الحرم الآمن في موسم حج سنة ١٤٠٧ هـ.. ما هو إلا لفحة سوء، طفح بها عقل مريض يختبىء وراء عباءة الإسلام.. بينما هو معتد حسود يكيد للإسلام كيداً فهو أخطر عليه من أعدائه الظاهرين.. ومن ثم لا بد من بيان حرمة الإنسان على نحو يدمغ هذه القوى العدوانية بالإثم والغدر.. وفي نفس الوقت يكشف النقاب أمام المخدوعين ليفيقوا على الحق المبين.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال:

(رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة وهو يقول: «**ما أطيبك.. وأطيب ريحك.. ما أعظمك.. وأعظم حرمتك.. والذي نفس محمد بيده.. لحرمة**

المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك: ماله.. ودمه.. وأن نظن إلا خيراً»[1].

إن الكعبة المشرفة عظيمة.. وطيبة، لكن حرمة الإنسان أعظم منها.. ويؤكد ﷺ هذه الحرمة بالقسم البليغ، الذي يصون دم الإنسان أن يهدر.. وماله أن يغتصب.. وسمعته أن تهان..

وإذا بقيت الكعبة المشرفة رمزاً للتوحيد.. فمن الذي يغرس أعواده في نجاح الأرض إلا الإنسان المؤمن؟!

إن قتل نفس واحدة يساوي في منطق القرآن قتل الناس جميعاً:

﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾[2].

بل إن الإسلام ليحترم «معنى الحياة» حيثما كان هذا المعنى.. في حيوان أو إنسان.. قال رسول الله ﷺ:

«لا تسبوا الديك، فإنه يوقظ للصلاة»[3].

فانظر كيف احتفظ الديك بحقه في الاحترام.. بينما أناس مسلمون.. أو يزعمون الإسلام يقتلون: الإنسان.. المسلم.. وبالجملة.. في الحرم.. وفي الشهر الحرام؟!

ثم يتوجهون بعد ذلك كله بالحالقة.. حالقة الدين.. حين يزعمون أنهم يفعلون باسم الإسلام: «وإذا لم تستح فاصنع ما شئت».

وأين هذا الحس الغليظ من تلك الحساسية البالغة في قلب أبي الدرداء رضي الله عنه عندما قال لجمله وهو يحتضر: «لا تخاصمني إلى ربك، فإني لم أحمّلك ما لا تطيق»؟!

وليت شعري ما سيقول الذين لطخوا الأرض الطيبة بدماء النساء والشيوخ والأطفال.. وشباب كنا نعدهم للمعركة الفاصلة بين الحق والباطل؟

---

(١) رواه ابن ماجة في سننه ٢/١٢٩٧.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

(٣) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

لقد «عُذّبت المرأة في هرة حبستها حتى ماتت، فدخلت بها النار»[1].

فما بال أناس يعذبون الإنسان المسلم بأيديهم.. وفي اللحظة التي يتطلع المسلم إلى زهرة سلام تعطر الجو من حوله إذا هو يتلقى الطعنة الغادرة التي تنهي حياته.. صاعدة روحه تشكو ظلم الإنسان إلى خالق الإنسان.

عن ابن عمر رضي الله عنه أنه مر بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً وهم يرمونه.. وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم. فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر: «من فعلِ هذا؟ لعن الله من فعل هذا، إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً»[2].

* * *

الإنسان في مرآة الإنسان

وقد علم المغرضون ـ لو ينفع العلم عندهم ـ مدى حرمة المسلم على أخيه المسلم.. كان ﷺ «يكره أن يحد الرجل النظر إلى أخيه، أو يتبعه بصره إذا قام من عنده، أو يسأله: من أين جئت وأين تذهب»[3].

إن تدقيق النظر ربما أوحى بشيء غير عادي في كيان المنظور إليه.. والإجابة عن هذين السؤالين: إفشاء لسر لا يريد صاحبه البوح به.. وما يترتب على ذلك من جرح شعوره.

فإذا كانت النظرة إرادة إخافة المسلم فإن جزاءها حينئذ يكون أشد.

قال ﷺ:

«من نظر إلى أخيه نظرة يخيفه فيها بغير حق أخافه الله يوم القيامة»[4].

ذلك أن القاعدة الإسلامية في مجال الاجتماع الإسلامي عدم ترويع المسلم بأي حال.

---

(١) رواه ابن عمر.. متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) البخاري. الأدب المفرد ٢/٥٧١.

(٤) رواه الطبراني.

قال ﷺ:

«لا يحل لمسلم أن يروّع مسلماً»[1].

* * *

الإسلام.. يسد ذرائع الفتنة

وقد وقىٰ الله تعالى المسلم من الهوان بما قعّد من قواعد تصونه حتى فيما يتسامح فيه الناس مما يرونه تافها.. وقد عبرت السنة المطهرة عن ذلك بما أشار إليه ﷺ من النهي عن كل ما يفتح باباً إلى إيذاء المسلم.

قال ﷺ:

«إياكم والظن.. فإن الظن أكذب الحديث.. ولا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تنافسوا ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم الله تعالى.. المسلم أخو المسلم: لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام: ماله ودمه وعرضه. إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.. التقوى هاهنا.. التقوى هاهنا.. التقوى هاهنا.. - ويشير إلى صدره - ألا لا يبع بعضكم على بيع بعض.. وكونوا عباد الله إخوانا.. ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»[2].

* * *

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) رواه مسلم.

أمتنا.. لا تموت

سئل السلطان «عبد العزيز» يوماً:

ما هي أقوى الدول في نظرك؟ فقال:

«تركيا».

ودهش السائل من الجواب. من حيث كانت تركيا حينئذ تسمى «بالرجل المريض».. وقال للسلطان: وكيف؟! فقال السلطان:

لأن الدولة التي يحاربها أعداؤها من الخارج.. والإنهزاميون يحاربونها من الداخل.. ومع ذلك فهي باقية.. إنها لأقوى دولة في العالم!

* * *

وهكذا أمة الإسلام دائماً:

يتواصى الأعداء بالقضاء عليها.. ويرمونها بالسهام من كل ناحية.. ثم يحسبون أنها ماتت.. ولن تقوم لها قائمة.. وفجأة يتحرك المارد.. ويفرك عينيه.. ثم يحاول النهوض من جديد.. بما يملك من طاقات إيمانية..

هذه الطاقات التي تمد الجسم بالعافية السارية في أعضائه.. وعلى ضوء الإيمان المنبعث من الأعماق يحاول المسلمون الصعود إلى القمة تارة أخرى..

وليس عندهم وقت يسألون أنفسهم: كيف نصعد من جديد.. وإنما هم يحاولون الصعود.. ولا يهمهم ما يحدث بعد ذلك.. فما لاقتهم من الأحداث.. يزيدهم قوة وثباتاً.

* * *

لقد ظن السائل هنا أنه بانحسار قوة المسلمين.. ينحسر المد الإسلامي.. لأنه يقيس الواقع الذي يراه بمقياس الأرقام والأحجام.. والجمع والطرح..

ونسي هذه الحقيقة الناصعة وهي:

أن المسلمين قد يضعفون كدولة.. ولكن.. وفي نفس الوقت.. يبقى الإسلام كدين.. يحفظ على الأمة وجودها.. حتى تنهض من جديد.. بعكس الحضارات المادية التي تلح على عقولنا بما تملك من وسائل الإعلام ومظاهر التقدم.. ومع ذلك.. فإن دول هذه الحضارة لو ضعفت.. ووهن عظمها.. ضاعت معها حضارتها كأن لم تكن.. لأنها لا تملك من عناصر الخلود ما يبقى على خميرة الحياة فيها.

وانظر إلى المسلم الذي.. قد يغلبه الشيطان يوماً.. فيورطه في المعصية.. ويذهب مع الشيطان في رحلة العصيان.. حتى لا يظن أحد أنه سوف يعود إلى رشده يوماً..

ولكن هذا المسلم العاصي نفسه يثور كالأسد.. إذا حاول إنسان أن يسب دينه الإسلام!

لأن قواه الخلقية سليمة.

* * *

وقد رأينا كتّاباً كباراً.. فتنوا بثقافة الغرب أو الشرق..

ثم.. وفي نهاية العمر.. أعلنوا.. رغم ثقافاتهم الواسعة أنهم لا يستمعون إلا إلى المصحف المرتل..

* * *

وسمعنا أن مؤلفين لأغاني العشق والغرام.. يؤلفو اليوم لمطربة شهيرة أغاني هادفة تتحدث عن تسبيح الرعد بحمد الله سبحانه وتعالى.

* * *

وهكذا: تبقى غريزة التدين.. كامنة.. كمون النار تحت الرماد.. لا ينطفىء لهيبها.. ولا تبرد حرارتها..

* * *

وهكذا تظل أمة الإسلام قوية.. مهما بدا من ضعفها.. وتخلف أبنائها.. من أجل ذلك.. فهي بعنصرها الإلهي الخالد.. أقوى من الزمان.. وأقوى من كل المحاولات الرامية إلى التخلص منها..

ولن يذهب إلا الذين يحاولون القضاء عليها..

﴿فأما الزبد فيذهب جفاء. وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾[1].

* * *

من عناصر الخلود في بناء الإسلام

قبل أن نتحدث عن مدى احترام الإسلام لمعنى الحياة.. نشير إلى قيمة هذه الحياة في نظر المذاهب الأرضية.. والتي قامت عليها أمم وشعوب.. لأن الأشياء تتميز بأضدادها:

عندما اقتحمت الدبابات الصينية الميدان الواسع في بكين.. وقتلت الآلاف.. احتجت أمريكا لدى الصين.. انتصاراً لمعنى الإنسانية.. وتقديراً للحياة..

ولكن أمريكا نفسها تعلم جيداً أن أكثر من خمسمائة مليون جائع في العالم.. يموت منهم سنوياً خمسة عشر مليون جائعاً.. ومع ذلك فهي ترمي بفائض القمح عندها.. وبفائض السمن.. واللبن أيضاً..

ومعنى ذلك أن حياة الإنسان أرخص من السمكة في البحر الكبير!

وهكذا كان الجبارون.. يبنون الدور والقصور.. وحياة العبيد المسخرين لا تساوي لبنة واحدة في البناء العالي..

ولقد سمعت أن ألمانيا الغربية هددت بقطع علاقاتها بحكومة لبنان لقتلها طيور (اللقلاق).. وهكذا نالت الكلاب والقطط حظها عن طريق جمعيات الرفق بالحيوان.. إلى درجة أن هذه الجمعيات تحاكم كل من يكسر سلكاً في قفصه.. فجرح أرنباً.. بينما لم تسأل الدولة الكبيرة عن الذي قتل الإنسان في لبنان!

* * *

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٧.

أما في الإسلام فقد حافظ على حياة الحيوان أولاً . . لكن البواعث الإسلاميا هنا مختلفة تماماً عن البواعث في البلاد التي لا تدين بالإسلام :

قال ﷺ :

«دخلت امرأة النار في هرة. حبستها فلم تطعمها. ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض» .

فالإسلام هنا دين الرحمة . .

ومن ثم فهو يحضنا على التخلق بفضيلة الرحمة . . حتى بالحيوان الذي قد لا يقدم نفعاً مباشراً للإنسان .

والرحمة أساس الفضائل جميعاً : الحب . والتسامح . والتواضع .

فنحن نحب من نرحمه . .

ونتسامح معه . .

ونتواضع له . .

ومن أسباب سعادة المجتمع سيادة هذه الفضائل . في تعامل الناس بعضهم مع بعض .

أما القسوة . . وتعذيب الكائن فهي :

تثير الرعب . . وتقطع الصلة . .

* * *

وانظر إلى احترام الإسلام لمعنى الحياة . . حتى في الهرة . . والنملة . . وتأمل كيف تدخل امرأة مؤمنة النار بسبب تعذيبها هرة . .

وإذن . . فما أشقى الذين يعذبون الإنسان . . ويكرمون الحيوان . . وهم مع ذلك يتبجحون ويدعون أنهم صانعوا الحضارة . . وسدنتها . .

وإذا لم تستح . . فاصنع ما شئت .

* * *

احترام حياة الإنسان

ربما سأل سائل:

في بعض المذاهب يحترمون حياة الحيوان.. فلماذا لا نسجل لهم هذه السابقة.. كما أضفناها إلى فضائل الإسلام؟

والجواب:

إن هذه المذاهب تؤمن بما يسمى بتناسخ الأرواح.. بمعنى أنها تعتقد أن روح الإنسان إذا مات تنتقل عنه لتحل في كيان آخر.. وقد يكون هذا الكيان حيواناً.. فهم لذلك يشفقون على الحيوان فقد تكون قد حلت فيه روح إنسان.

فهذه أنانيتهم تحملهم على ذلك..

وليس الأمر كما في الإسلام رحمة بمخلوق.. أكد الرسول ﷺ أن في الإحسان إليه أجراً.

* * *

هذا هو الإسلام في احترامه لمعنى الحياة.. ولو حلّت في كلب.. أو هرة.. فكيف بلغ تكريمه لحياة الإنسان؟

يقول الله تعالى:

﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ـ ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾[1].

فتأمّل كيف كان إزهاق روح واحدة قتلاً لسكان الكرة الأرضية جيمعاً..

ذلك بأن قتل نفس واحدة عدوان على معنى الحياة المشترك بين الناس جميعاً..

* * *

وأمر آخر:

فقد بلغ من قداسة الحياة في الإسلام أنه لا يجوز للإنسان أن يقتل نفسه..

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

ثم هو مكلف بصيانتها. . ومسؤول عن تعريضها للتلف.

يقول ﷺ فيما رواه البخاري:

(قال عليه الصلاة والسلام: «**من بات على إنجار فوقع منه. فمات. برئت منه الذمة**».

«**ومن ركب البحر حين يرتج. فهلك. برئت منه الذمة**»).

«والإنجار: هو السطح الذي لا حاجز له».

ومعنى هذا أن من خاطر بنفسه في هذين الأمرين:

بالنوم على سطح لا سور له. .

ويركب السفينة أو الباخرة وقت اضطراب الموج. فهو مسؤول عن هلاك نفسه. وهو عاص حينئذ.

مما يؤكد ضرورة استعمال ما يقي الإنسان به نفسه.

وإن ذلك لا ينافي التوكل على الله تعالى.

* * *

ولو أنك تأملت تشريع الجهاد لطالعك من أسراره أنه استعداد عسكري من شأنه كف أيدي الأعداء عن العدوان حتى لا يكون قتال بالمرة. . ومعنى ذلك حفظ دماء الإنسان مهما كان دينه. . وإن كان وثنياً يعفر جبهته بالتراب لشجر أو حجر.

* * *

الكنز الذي لا يفنى

إذا كنا نتطلع إلى المال.. والقوة.. والسلطان.. فيجب ألا ننسى ثروة أغلى من ذلك كله..

وهي المبادىء الكريمة التي تعمر القلب.. وبها يصير الإنسان إنساناً..

إن المال يذهب.. والقوة تضمحل.. أما الفضائل النفسية.. فهي باقية أبداً..

قيل لفتى مؤمن:

أيسرك أن يكون لك ألف دينار وأنك أحمق؟

قال: لا.. فإني أخاف أن يذهب حمقى بمالي!

* * *

ونتأمل بياناً لذلك في الأثر عن جعفر الصادق رضي الله عنه:

(إن فقيراً أتى النبي ﷺ. وعنده رجل غني.

فكف الغني ثيابه عنه.. فقال له ﷺ:

«ما حملك على ما صنعت؟»

«أخشيت أن يلصق فقره بك؟»

«أو يلصق غناك به؟!»

«فقال يا رسول الله: أما اذْ قلت هذا. فله نصف مالي.

فقال ﷺ للفقير:

«**أتقبل منه؟**» قال: لا . .

قال ﷺ: «**ولـم؟**» قال: أخاف أن يدخلني ما دخله!)

* * *

هذا غني مستكبر يبتعد بنفسه حتى لا يلامس ثوبه . . ثوب الفقير . . ويبدأ التحقيق الفوري بهذا الاستفهام المنكر لما حدث . . إذ أن الفقر والغنى كلاهما لا ينتقل بالعدوى . . فلم تكسر خاطر الفقير؟!

ولما وجد الغني نفسه عارياً أمام بصيرة الرسول ﷺ أراد أن يصحح خطأه بالتنازل عن نصف ثروته جزاء ما أهان الفقير!

ومع أن نتيجة التحقيق معروفة مقدماً . . إلا أنه عليه السلام يواصل المحاكمة حتى يتبين للناس نفاسة ما يملك المسلم من عزة ولّدها الإيمان . . وتفاهة ما يزهو به الفارغون من عرض الدنيا . . وحين يعرض الغنى نصف ماله . . لا ينوب الرسول عن الفقير في تقبلها . .

فهو أمر يتعلق بكرامته . . وعليه أن يتخذ هو قراره بنفسه . . وأيضاً . . ليلقي على الحاضرين درساً علمياً حياً . . على أن في أنفسهم كنوزاً عليهم أن يحافظوا عليها . . هذه الكنوز التي لا تعوض بمال . .

وإن مال الدنيا لا يقوم بدورها إذا نضب معينها . .

وهيهات أن تداوي الثروة نفساً جرحها الكبرياء . . أو حاول . . وما أكثر الذين يجرحون الكرامة . . ثم يحاولون جبر الخاطر بالمال . . ومن أظلم ممن يأخذ من قلبك . . ليعطيك من جيبه؟!

* * *

لقد كان الفقير أحرص على عفته . . حين رفض المال . . خوفاً من ثمراته المرة ومنها التكبر على عباد الله . . وليكن الستر شعاراً له ودثاراً . . وذلك أجدى من ثروة تخرب باطنه من معاني الخير.

* * *

والموقف يبرز مسؤوليـة الفرد. . المسؤول عن كـرامته حتى لا تضيـع هباء. . ويبرز أيضاً مسؤولية الحاكم المسلم في التدخل لفض النزاع لصالح الحق. .

وليحمي الفقيـر من الغني. . والضعيف من القـوي. . تحقيقـاً للتـوازن. . وإقراراً للأوضاع. . قبل أن يستبد رأس المال المتربص بأقدار الشرفاء. .

ولتبقى الكلمـة الأخيرة للفضـائل. . فهي المقيـاس الـذي يضبط الخـطى. . حتى لا تزل. . فتضل.

* * *

رجل في القمة

ما أكثر ما يحفل به تاريخنا من مشاهد تغري بالبحث والنظر. . وتدعو الشباب المفتون بثقافة الغرب إلى رجعة عبر هذه المشاهد. . ليرى على شاشة تاريخه أصول العزة المركوزة في نفسه. . على نحو يزري بكل دعاوى المدنية الحديثة. . ويؤكد في ذات الوقت قدرة العقيدة الإسلامية على صوغ النفوس صياغة فريدة. . تجعل من هذه العودة إلى ماضينا رحلة مباركة مثمرة. . نتملاها ونستلهمها أصول الحياة الرشيدة. . ثم نواجه بهذا الزاد الطيب دعاوي المبطلين. . في محاولة جديدة لنقل الخطى على الطريق المستقيم. . والاستمساك بالعروة الوثقى. .

ونحن الآن مدعوون إلى وقفة واعية حيال واحد من هذه المشاهد لنرى كم في أغوار النفس الإنسانية من حقائق. . يجب أن يعرفها الناس هنا وهناك. عن ابن عباس قال:

أسرت الروم عبد الله بن حذافة السهمي. . صاحب رسول الله ﷺ. . فقال له الطاغية: تنصر. . وإلا ألقيتك في البقرة ـ قدر كبير من النحاس ـ قال: ما أفعل.

فدعا بالبقرة النحاس فملئت زيتاً وأغليت.

ودعا برجل من أسرى المسلمين. . فعرض عليه النصرانية. . فأبى. . فألقاه في البقرة. . فإذا عظامه تلوح.

وقال لعبد الله: تنصر وإلا ألقيتك. قال: ما أفعل. فأمر به أن يلقى في البقرة. . فبكى.

فقالوا: قد جزع. . قد بكى. . قال: ردوه. .

فقال عبد الله: لا ترى أني بكيت جزعاً مما تريد أن تصنع بي.. ولكني بكيت حيث ليس لي إلا نفس واحدة يفعل بها هذا في الله.. كنت أحب أن يكون لي من الأنفس عدد كل شعر فيَّ. ثم تسلط علي فتفعل بي هذا..

قال: فأُعجب به.. وأحب أن يطلقه. فقال: قبل رأسي.. وأطلقك.

قال: ما أفعل.

قال: تنصر وأزوجك ابنتي.. وأقاسمك ملكي.

قال: ما أفعل.

قال الطاغية: قبل رأسي.. وأطلق معك ثمانين من المسلمين.

قال عبد الله: أما هذه فنعم.

فقبل رأسه.. وأطلقه. وأطلق معه ثمانين من المسلمين..

وهكذا فشلت أولى محاولات التبشير المتربص بديننا.. وانحسرت موجاتها في سفح هذه العزة في صدر ابن حذافة.. والتي دوخت الغرور في عقر داره.

لكن ذلك إجمال.. يحتاج إلى تفصيل:

يقول الرواة:

أرسله رسول الله ﷺ بكتاب إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام. فمزق كتاب رسول الله ﷺ.. فقال ﷺ.

«**اللهم مزق ملكه**» فقتله ابنه شيرويه!

وإذاً.. فقد كان عبد الله سفيراً لبلاده لدى دولة المشرق.. وتمرس بأهوال السفارة التي كان منها تمزيق كتاب رسول الله بيد كسرى..

بيد أنه كان يتمتع بلون من «الدبلوماسية» فريد.. لم يكن على أي حال من ذلك الصنف الناعم. الذي يذبح بغير سكين كما يقال اليوم في تعريف الدبلوماسية.. وها هو ذا يستأنف مهمته بعد ذلك.. بسفيراً لأمته إلى الروم.. في مهمة قتالية تكشف عن معدن المسلم الأصيل..

حمل سلاحه.. ومضى في صحبة قلب جسور.. وإرادة على أعلى مستويات

الالتزام بما أعطت من عهود. . وثبات على الحق يرفض التبديل. . مهما يكن ثمن ذلك التبديل. .

قال له الطاغية: تنصر. . وإلا. .

ويجيبه بلهجة حاسمة لا ظل فيها للتردد أو التلعثم: ما أفعل.

ولو سارت الأمور على طبيعتها لقذف به في القدر الكبير. .

ثم تنتهي المأساة.

لكن الطاغية يتوقف. . ثم يغير خطته حين يملأ عينيه بمشهد زميل تلوح عظامه. . ولكن عبد الله يردد نفس الجملة بنفس النبرة الحاسمة القاصمة في نفس الوقت: إن الذي تردد وعجز عن اتخاذ قراره. . هو نفسه الطاغية المحفوف بجنده. . الآمن في سربه.

لقد استند في موقفه إلى جلال المنصب وكثرة الأعوان. . وآلات التعذيب يكسر بها مقاومة المسلمين. . وكلها أمور تأتيه من «خارج ذاته».

أي إنه باطن خواء. . وظاهر رواء. . تماماً كهذه الكرة الجوفاء في مهب الريح. . لا تستقر على حال من القلق. ويطاطىء الكبرياء المزيف رأسه أمام. . رجل. . واحد فقط. . يستمد من ذاته المحكومة بالإيمان صلابة موقفه!!

إنه موقف صاغه الإيمان بالله عز وجل. . من أجل ذلك. مكّن عبد الله من أن يمسك هو بزمام المبادرة.

وصحيح أنه في خضم دولة الروم. . قطرة صغيرة. .

وصحيح أيضاً أنه.. بندقة. . ولكنها بالإباء صعبة الكسر. حلقة ضئيلة ملقاة في صحراء واسعة. . بيد إنها صلبة. . مصمتة.

ويكفيه شرفاً أنه استطاع أن يقول: «لا» في لحظة تطالعه فيها أشباح الموت من بين يديه ومن خلفه.

وفي الوقت الذي تنحني فيه الشوارب المفتولة والهامات المرفوعة بين يدي الطاغية الرومي لمجرد كلمة يقولها. . وتظل الأعناق خاضعة في رهبة الموقف. . إلى أن يأتيها الإفراج. . في هذا الوقت بالذات. . تزحف قيم الإسلام الجديدة. .

بل تغزو أرض الروم في محاولات مباركة لتعليم هؤلاء الناس أصول الحضارة. . وفن الحياة. . على يد رجل واحد. . تجيش نفسه بقيم الرجولة التي صنعها الله تعالى على عينه. . والتي يراد لها اليوم أن تزدهر بالقدوة. . لا بقوة السلاح كما يزعمون اليوم. . وصحيح أن السلاح قد رفع في معركتنا مع الباطل. . لكنه رفع أولاً بيد المعتدي ـ كما تفيد قصتنا ـ في محاولة لصد نهر الإسلام الذي تندفع أمواجه عبر الحياة. . ليروي غلة الظماء.

بمثل هذه المعاني التي تملأ أعين الروم لأول مرة. . ويكفي أن عبد الله. . وهو الفرد. . الغريب قالها كلمة باقية. . وثبت عليها. . بينما الطاغية لم تسعفه شجاعته ليتخذ موقفاً واحداً.

* * *

ويحاول الغرور الجريح أن يلملم قواه المبعثرة ليستر حمرة الخجل البادية: فعندما واجه عبد الله بمشهد زميله الراعب داخل القدر. . بكى. . ولأول مرة. . وظن الطغيان أنها رقصة الطائر الذبيح.

ومن سخرية الموقف أنه في اللحظة التي يبلغ فيها الظلم قمة اقتناعه بموقفه. يفاجأ على الطرف الآخر بالحق يبلغ قمة إيمانه بعدالة قضيته. . وحينئذ تكون القاضية.

لم تكن هذه الدموع الغزار من معين الأسى. . بقدر ما كانت فيض الشوق إلى مزيد من العمر. . إلى حيوات بعدد شعر رأسه. . يبذلها البطل رخيصة في سبيل حياة هي الحيوان. . لو كان الطغاة يعلمون.

وإذا كانت أمنية اليهودي المادي أن يعمر ألف سنة. . فإنها نفس أمنية عبد الله وأمثاله المؤمنين. . إلا أنه العمر المرصود لقضايا الحق والعدل. . وليس هو الشح المطاع ضناً بالعمر الخالي من قيم الحق والخير.

ويسرع عبد الله. . وقبل أن ينتهزها الباطل فرصة للتشهير فينفي أنه بكى جزعاً أو طمعاً. وهنا تظهر معادن الرجال في دوامة الخطر:

إن إيمانهم لا ينقص. . بل ولا يتجمد. . لكنه يزداد في أوج العاصفة اشتمالاً. . وكلما انقضت على رؤوسهم الصواعق زادتهم إيماناً وعلى ربهم

يتوكلون. على ما يقول سبحانه:

﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليما﴾[1].

وهكذا ينجح الأسير العربي المسلم حين يُري العدو من نفسه قوة.. فيفرض عليه احترامه.. فيتذرع الطاغية بابتسامة صفراء نعبر عن رغبة هزيلة في إطلاق سراح عبد الله..

ويتنازل عن كل شروطه.. و «يرجوه» فقط أن يقبل رأسه..

والجواب كما هو: ما أفعل.

ويبلغ الطاغية بالترغيب إلى مداه حين يغريه بالزواج من ابنته شريطة أن يتنصر. على أن يقاسمه لو تم ذلك.. ملكه الواسع..

ورغم أنه يخاطب فيه أقوى غريزتين تذلان أعناق الرجال.. إلا أنه يرفض بإباء وشمم: وتفشل محاولات الإغراء بالنساء والأموال والتي تحدرت من الأسلاف إلى الأخلاف..

لقد واجه الطاغية في شخص عبد الله قيماً جديدة فجرها الدين الجديد في صدور بنيه.. ويا لها من حقيقة مفزعة:

إذاً كان هذا فرداً.. يرسف في القيد.. ومع هذا يثبت في مكانه.. فكم يكون خطره حين ينخرط في جيش منظم.. وينطلق في ساحة المعركة ذات اليمين وذات الشمال؟.

ولا يطيق الحاكم أن يطلق لخياله العنان.. ويقرر إنهاء الموقف بثمن بخس.. فلم تعد أعصابه تتحمل فوق ما تحملت.

وتهتز اليد الرومانية الراعشة وهي تضرع إلى الأسير أن يقبل الرأس.. ويطلق سارحه مع رفقة السلاح.. وهنا فقط يقول عبد الله: نعم..

وأمام ضغط الإرادة العالي.. وأمام إرادة الموت ممثلة في عبد الله بن حذافة

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٢.

يعود الغرباء في خطى مباركة . . معلنين هـزيمة دولـة الروم . . التي تلفظ اليـوم أنفاسها . . وتلك هي الضمانة التاريخية التي لا تضل أبداً :

«إرادة الموت» . . [فإذا جزمت أمة بإرادة الموت فلن تستطيع قوى الأرض وما فيها انتزاع مثل الشعرة من حقها] . . وهذا مـا حدث بـالفعل . . لقـد أجبرت الـروم على التـراجـع في شخص رئيسهـا . . الـذي بـدأ ينسحب بهـدوء . . لينـطلق هؤلاء عـائدين إلى بـلادهم وقايـة للبلاد من تـأثيـرهم . . حتى ولـو كـانـوا في معسكـرات الأسرى . . إن لهم جاذبية خاصـة . . ولو بـدا له استـدعاؤهم واحـداً واحداً فسـوف يتلقى نفس الجواب . .

* * *

لقد رفض عبد الله أن يحل القضية حلاً جزئياً معه . . ليطلق سراحـه وحده . . وها هو ذا يعود مع زمـلاء الكفاح . . متحـرفين لقتال . . متحيـزين إلى فئة . . وغـداً يعودون ليدمروا على الطاغية حصونه . وذلك هو الهدف الذي رمى إليه عبد الله حين قبل رأسه تمهيداً لتلك العاقبة . . والغريب أن عمر بن الخطاب وهـو من هو صـرامة وبـأساً . . ومعـارضة لاتفـاق السلام في صلح الحـديبية يستقبـل ضيفـه عبـد الله بن حذافة . . ثم يقبل رأسه . . ولما عاتب الصحابة عبد الله لأنـه قبل رأس كـافر . قـال لهم عمر :

أطلق الله بتلك القبلة ثمانين من المسلمين .

والحقيقـة إنَّ الأسيـر لم يتنـازل أبـداً . . إن التنـازل كـان من قبـل الـطاغيـة المتحكم . . حين رضي منه بالبقـاء على دينه . . وفقط يقبـل رأسه . . والنقلة هـائلة بين المطلبين . وبعد :

فقد روي أن حاكم الروم حبسه ومنع عنه الـطعام ثـلاثة أيـام . . ثم قدم إليـه لحم خنزير . . وخمراً فامتنع . فلما سأله عن سر امتناعه قال له :

أما إنه فقد حلّ لي . . ولكني لا أريد أن أشمتك فيَّ ! .

وهكذا فشلت سياسة التجويع . . بعد فشل محاولات التنصير . .

وبقي الموقف بهذه العزة المتأبية مثلاً حياً . . لشباب اليوم الذين ندعوهم إلى يقظة مباركة يتملون فيها تاريخهم . . ليعودوا برصيد صخم من القيم . . يـزري بكل

ما يدل به أعداؤنا. . ويكشف النقاب عن أصول الحضارة في تاريخ أمتنا. .

هذه الحضارة المؤسسة على الخلق القويم الساخرة ـ في شخص عبد الله بن حذافة ـ من هذا المنطلق العصري الذي يبيح شرب الخمر من أجل عملة صعبة. . وهو ما رفضه الصحابي الجليل. . إبقاء على مبادىء هي أثقل في الميزان. . من كل مغريات الدنيا.

أولئـك آبـائي فجئني بـمثـلهم ... إذا جمعتنـا يا جـريـر المجـامـع

* * *

التقوى في ميزان الإسلام

التقوى. . وظيفة الإيمان

يقولون:

إن الوظيفة تخلق العضو.

فإذا كان المشي وظيفة رجلك. فإن رجلك هذه تظل صالحة للحركة ما دامت تمارسها على أرض الواقع.

ولو أنك وضعتها في قالب بجمّد نشاطها. . فقدت حياتها. . لأنك عطّلت وظيفتها التي لا تكون إلا بها.

ومن طبيعة الإنسان إلى طبيعة الإيمان. . نجد نفس المعنى:

فإذا لم يتحرك الإيمان ليصبح في السلوك عملاً بعد أن كان في القلب أملاً. . توقف ذلك الإيمان عن الحركة. . وفقد في نفس الوقت قدرته على صنع المواقف ومواجهة الحياة. .

إن الإستفتاء على وجود الإيمان في القلوب سيأخذ بالطبع أغلبية مطلقة بين جماهير المؤمنين!.

ولكن. . عندما يوضع ذلك الإيمان على محك التجربة. . عندما يستفتى عليه كأمانة في المتجر. . وجودة في المصنع. . وإخلاص في الدرس. . وتضحية في الأزمات . . سوف تنخفض النسبة كثيراً !!

ومن أجل ذلك يأمرنا الحق سبحانه وتعالى بالتقوى. . كوظيفة للإيمان يتحرك

بها الإنسان. . ليتحول بالتقوى من شعاع خافت. . وذبالة تتراقص إلى قوة بانية محركة.

وذلك قوله عز وجل:

﴿قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾[1].

فلم نكلف بنداء العبودية أن نؤمن. . لكننا بحكم الإيمان الحاصل فعلاً مأمورون بالتقوى كصورة عملية للعقيدة. .

إننا عباد الله. . ومؤمنون به. . فلنتقدم على طريق الكمال خطوة يتم بها الميثاق ويكون بها الإلتزام. . بالتقوى:

﴿. . . اتقوا ربكم﴾.

السفر البعيد!

ولكن الزاد هنا قليل، والشقة بعيدة. . والتكليف شاق؟

والذي خلق الإنسان أدرى بطبعه. . ومن ثم يمهد له السبيل. . ويحمله برفق ولين ليخوض الغمرات. . ويجتاز مراحل الطريق بسلام. . ونحن واجدون في كلمات الآية الكريمة ومضات من هذا الود وتلك الرحمة تعين على أمر الله.

فالنداء يوصف العبودية وما فيه من حنو. . ووصف الإيمان وما يفرضه من الوفاء بالتزاماته. . ثم إضافة المنادي إلى ربهم وما يوحى به من سابق النعم ولاحقها أيضاً. مع إحساسك بأنك على أوفى معاني الإحسان بهذه التقوى. كل أولئك باعث للهمم من مراقدها لتنطلق عاملة آملة. ولترتقي بهذه الحركة المباركة قمة الإحسان:

﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾[2].

ولا يرضى منك الإسلام أن تستسلم للواقع الضاغط. على حساب تقواك بفضائلها. فإذا سمحت لك الظروف بالحركة صاعداً في مراتب الكمال الإنساني.

---

(١)سورة الزمر، الآية: ١٠.

(٢) سورة النحل، الآية: ٣٠.

فبهـا. وإلا. (فـأرض الله واسعـة) ولا عـذر لـك في البقـاء بـأرض لا تحقق فيهـا إنسانيتك.

وإذا قال الشاعر:

بـلادي وإن جارت علي عـزيـزة وأهـلي وإن ضنـوا عـلي كـرام

فإن هناك مـا هو أعـز من قومـك وأكرم. وهـو: دينك الـذي أكرمـك الله به. ومبادؤك التي استخلفك عليها.

وصحيح أن فراق الأوطان مر المـذاق لدى الإنسـان. ولكن عدتـك من الصبر الجميل تستعلى بك فوق المتاعب والمصاعب.

ذلـك بأن الصبـر ضياء. والحيـاة في سناه أوسـع ما تكـون. كمـا وأن اليـأس ظلام. فالحياة في أَسْرِهِ ما تكون:

لعمـرك ما ضـاقت بـلاد بـأهلهـا ولكن أخـلاق الـرجـال تضيق

الأسوة الحسنة

فإذا أنت أخذت نفسك بالصبر سبيلاً إلى تحقيق التقوى. كأخـلاق عملية في كل اتجاه. وعلى كل مستوى.

فـأنت مطالب بـأن ترفـع بصرك إلى أعلى. لتمـلأ عينيك بمشهـده ﷺ. إنـه أمامك يمشي على ذات الطريق!:

﴿قـل إني أمرت أن أعبـد الله مخلصـاً لـه الـدين وأمـرت لأن أكون أول المسلمين﴾[1] فهـو لا يأمـرك بالتقـوى من خلف المكتب الـوسيم، أو عبـر مكبـر الصوت. لا، إنه يتقلب أمامك في دروب الحياة محققاً مضمون الإيمان، لتنسـج على منواله. وتترسم خطاه.

في رحلة لا ينجـح فيها إلا العـاملون. الذين يـدعمـون بهـذا العمـل مفهـوم الإيمان في القلب. أي إن صور النشـاط الإنساني كلهـا فوق أنهـا مقصودة لـذاتها. تثبت في ذات اللحـظة دعائم الإيمـان بهذه الممـارسة العمليـة التي تنعكس آثارهـا على الباطن رسوخاً وثباتاً.

إن النفس الموصولة بالحق. الماضية على طريق الخير طاعة لأمره سبحانـه. حتى وإن عرضت لها من الشيطان عوارض. تبقى دائماً على عهدهـا القديم. وفـاء وولاء.

(١) سورة الزمر، الآيتان: ١١ ـ ١٢.

ولا يفقدها الصراع الدائم قدرتها على الكشف. ما بقيت سائرة على الدرب.. محققة منهجها في واقع الحياة على نحو صارم.. لا يجامل في الحق.. والمتقون في هذا المجال فرسان الحلبة.

وحين نقرأ قوله تعالى:

﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى﴾[1].

يبرز دورهم العملي الذي ينعكس على الباطن ضياء كاشفاً. يميزون به الخبيث من الطيب.. فينفرون من الأول. ويمضون إلى الثاني.

إن الحركة الذاتية طاعة لله تُقوِّي الملكات النفسية في كيان الإنسان. وتمنحه قدراً من الطاقة.. يعينه على قطع مرحلة أخرى عبر الطريق الطويل..

وفي هذا المعنى نقرأ ما قاله المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه «دستور الأخلاق في القرآن» وهو يتحدث عن أثر النشاط المادي في حركة الحياة: الذي يصبح دوره مزدوجاً: فبدلاً من أن يجنح بنتائجه إلى الخارج فقط.. يستدير في الوقت نفسه إلى الداخل. ليقوى استعداداتنا الفطرية. ويزيد في تأصيلها.

ألم يؤكد القرآن أن الإحسان يثبت النفس فقال جلّ ذكره.

﴿ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم﴾[2].

ويطهر الإنسان. ويزيد في قيمته:

﴿تطهرهم وتزكيهم بها﴾[3].

وهذا هو شأن الأعمال الصالحة كلها كما قال الإمام الغزالي.. فالغرض منها أساساً تغيير صفات أنفسنا.. قال الإمام:

(فلا تظن أن في وضع الجبهة على الأرض غرضاً. من حيث أنه جمع بين الجبهة والأرض، بل إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب.

---

(١) سورة الليل، الآيات: ٥ ـ ٦ ـ ٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٥.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

فإن من يجد في نفسه تواضعاً . . فإذا استكان بأعضائه . . وصورها بصورة التواضع . تأكد تواضعه .

ومن وجد في قلبه مودة على يتيم . . فإذا مسح رأسه وقبّله تأكدت الرقة في قلبه) .

ويقول قبل ذلك :

(وإذا حصل أصل الميل إلى المعرفة . فإنما يقوي بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه . فإن المواظبة على مقتضى صفات القلب . وإرادتها بالعمل تجري مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة . حتى تترسخ الصفة . . وتقوى بسببها . . وإن خالف مقتضي ميله ضعف ميله وانكسر . وربما زال وانمحق . بل الذي ينظر إلى وجه حسن مثلاً . فيميل إليه طبعاً ميلاً ضعيفاً . لو تبعه وعمل بمقتضاه . . فداوم على النظر والمجالسة ، والمخالطة ، والمجاورة . تأكد ميله . حتى يخرج أمره عن اختياره . فلا يقدر على النزوع عنه .

ولو فطم نفسه ابتداء . وخالف مقتضى ميله . لكان كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل :

ولن يتأكد ذلك إلا بالموافقة على أعمال الطاعة . وترك المعاصي بالجوارح . . لأن بين الجوارح والقلب علاقة . . حتى إنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر . فالقلب هو المقصود . والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود) .

وبهذا يتضح دور المتقي في ترقية الحياة .

فليس هو ذلك الهارب في مغارة جبل أو مدخل .

بيد أنه الصورة المتحركة . . التي تملأ العيون . . وتؤكد بحركتها ذاهبة آية قدرة الإسلام على بناء الإنسان الفاضل . . والمجتمع الفاضل . . لقد حرّض أعداء الإسلام على صنع نماذج تنتسب إلى الإسلام إسماً . . حتى إذا رآها السطحيون حكموا على الإسلام من خلالها . . ثم ضعفت ثقتهم بالإسلام تحت ضغط هذه الدعاية الكاذبة الخاطئة . . وواجب الدعاة أن يكثروا العمل . . تدعيماً للنظام . . لا أن يكثروا القول تشدقاً بالكلام . . وإذا كان المتقي كما قال : الحكيم الترمذي :

«بمنزلة رجل خرج من الحمام . . وقد تطهر من الأدناس والأوساخ» .

(ولبس ثياباً بيضاً فإذا رأى غباراً أو هاجت رياح. توقى على رأسه وثيابه أشد التوقي).

إذا كانت هذه صورة المتقي.. فإن دوره يأخذ شوطاً آخر على طريق العمل الإيجابي.. ذلك الدور الذي لخصه الحكيم الترمذي هنا أيضاً بقوله:

[.. وأن يحدوهم على الخيرات.. ولا يدعوهم إليها].

أن تكون له في رسوله ﷺ أسوة حسنة.. فلا يكتفي بالدعوة المجردة إلى الخير.. بلسانه.. بل يحملهم عليها بعمله أولاً.

إن خطبة بليغة.. رائعة.. أفضل منها عمل واحد.. تراه العين.. ويسجله التاريخ.

[المتقون والبصيرة الكاشفة:]

يتميز المتقون من الناس كما يتميز الماس من الفحم.. وهما من أصل واحد إن فص الماس يتحمل الضغط العالي.. وكلما صببت عليه النار.. ردها إليك نوراً:

أما الفحم: فهو الفحم دائماً:

ظلمات بعضها فوق بعض:

وعلى كثرة ما تحمل الأرض من ألوان البشر.. فإن جماهير غفيرة تمضي على وجوهها.. مدفوعة بغرائز الأنانية.. محكومة بمنطق المنفعة:

خلقوا.. وما خلقوا لمكرمة   فكأنهم خلقوا.. وما خلقوا
رزقوا.. وما رزقوا سماح يد   فكأنهم رزقوا.. وما رزقوا!

ومن دون هؤلاء جميعاً يمضي المتقون على سواء الصراط:

هداة إلى الحق.. دعاة إلى الخير..

وكأنما أقامهم الحق سبحانه حجة على الناس.. ليفتحوا أبصارهم على نماذج منهم.. يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق مثلهم.. لكنهم عاشوا فوق مستوى المنفعة.. وحين نزعتهم من الدنيا نوازع الشهوات.. تخطوا الحواجز النفسية.. واتخذوا إلى الحق والخير سبيلاً:

يقول الحق سبحانه:

﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين. والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾[1].

﴿قُل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد﴾[2].

فالحياة بكل ما فيها من صور المتاع مبسوطة أمام كل الناس.. حتى المتقين منهم.. والقدرة على الاستمتاع بهذه الطيبات قاسم مشترك بين الناس جميعاً.. وعندما يقف أكثر الناس بوجودهم في السفح.. وعند مستوى المنفعة الحسية بنسائهم. وأولادهم وأرضهم.

فإن المتقين على ما فيهم من غرائز الجنس، والأبوة، والتملك ـ مثلهم ـ إلا أن الحياة تبدو في أعينهم في حجمها الطبيعي:

وهذه الشهوات كما تشير الآيات:

«متاع».. محدود القيمة.. سريع الزوال.

ثم هو «متاع الحياة الدنيا».. لا يشكل هدفاً بعيداً.. تشد إليه الرحال.. ويشقى من أجله الرجال!

ويفتح السياق القرآني هنا أبصار الصفوة على أفق أعلى.. ليتذوقوا النعمة الحقيقية من وراء ذلك كله:

﴿قل أؤنبئكم بخير من ذلكم﴾.

إن المتقين يحبون النساء.. ولكن قصد العفاف وكثرة الأولاد.. ويحبون الخيل المسومة.. إعداداً للمعركة الفاصلة بين الحق والباطل.. وأولادهم متعة الحس والنفس.. بيد أنهم لا يتحولون إلى فتنة تلهي عن مطالب الإيمان.

---

(١) سورة آل عمران، ١٤ .

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥.

إن الشعـور بجمال الحيـاة مطلب في منهـج التقوى. . جمـال الحيـاة. . في ظاهرها وباطنها على السواء.

ومعنى ذلك أن التقوى تمنح أربابها حساً بصيراً بعواقب الأمـور. . ينفذون بـه من الشكل إلى الموضـوع. . من القشرة إلى اللب. . إيثـاراً للباقي على الفـاني. . وضناً بطاقات النفس أن تطير شعاعاً على موائد الترف والمجون. وفي الوقت الـذي يتقلب فيـه المترفـون بين أعـطاف النعيم. . وحينمـا يـدلـون بمـا يملكـون من مـال وسلطة.

وعندما يخـرجون على النـاس في زينتهم. . بما لهـا من بريق خـداع. . فإن المتقين لا يتخلون عن دورهم أبداً.

﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد. متاع قليـل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله وما عند الله خير للأبرار﴾[1] .

وإذا أحسن المتقون استقبال النعيم الدنيوي، فكـان في حسابهم معـراجاً إلى أفق أعلى، فـإن ملكاتهم النفسيـة والعقلية تحسن أيضـاً استقبال واردات الهـدايـة: تقرأ، وتفهم، وتوازن. ثم تختار.

إن القرآن الكريم معروض أمام كل الناس، لكن الكثرة الكاثرة لا يأخذون منه إلا كما تأخذ هبة النسيم العابرة من الروض الناضر.

أما المتقون، فهم وحدهم المنتفعون بـه، الذين يمـلأون صدورهم من عبقـه وقلوبهم من حقائقه:

﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾[2] .

وعندما تختلط السبل أمام السالكين، فيشتجر الخلاف، ويغيم الجو، ويختلط الحق بالباطل، وتحتوي الناس حيرة قاتلة تصبح التقوى حينئذ طوق النجاة، وفرقانـاً يميز به المتقي الخبيث من الطيب. والباطل من الحق.

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٦ ـ ١٩٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢.

لكم والله ذو الفضل العظيم﴾[1] .

إن القلب الموصول بالحق لا يخطىء الحق أبداً، وما أعظم الفضل حينئذ! : فبينما يضيع العصاة أوقاتهم ويبددون طاقاتهم فى محاولات الخروج من فتنة الحيرة.

فإن طاقات المتقين وأوقاتهم مرصودة لبناء طوابق عليا، فوق الأساس السليم! بما منحهم الله تعالى من بصيرة يكشفون بها معالم الطريق، وحتى في لحظات الخطر المحدق، فإنهم يبصرون سنن الله في النصر والهزيمة فلا يبطرون في الأولى، ولا ييأسون في الثانية:

﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾[2] .

وهذه السنن الإلهية الماضية في الاجتماع البشري واضحة كالشمس، تملأ العيون وتدركها العقول.

ولكن بعض الناس لا يرى الشمس حتى في الضحىٰ ، وإذا رآها ، فكأنها شيء لا يعنيه ! .

ويتفرد المتقون بالرؤية الواضحة لحقائق الكون والحياة:

إنهم يفتحون كل منافذ الحس فيهم، فإذا هم على الحق سائرون، يجددون بالعمل ما يَلِي من قيم، ويمسحون بالتوبة ما يعلق بهم من غبار الطريق، إنهم ليسوا «آلات تصوير»، وإزاء ما يشاهدون ويحسون، وإنما هم أجهزة استقبال لواردات الهداية، تعطيهم الآيات أسرارها لتصبح في كياناتهم لا مجرد معرفة نظرية وإنما (هدى وموعظة) تستجيش قلب الإنسان وعقله ليقبل بكيانه كله على أمر الله تعالى:

وفي غمرة الاندفاع في معركة الحياة تكون للمتقين مع الشيطان جولات، قد يحقق فيها الشيطان نصراً ولكنه النصر الجزئي المؤقت، والذي يصحو المتقون فور حدوثه على صوت النذير آتياً من أعماقهم، والذي لا يغيب أبداً على ما يقول سبحانه:

---

(١) سورة الأنفال، الآية : ٢٩ .

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٧ ـ ١٣٨.

﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾[1].

وتطالعنا الآية الكريمة بأمور:

١ ـ حتى الذين صارت لهم التقوى ملكة راسخة ، لن يكونوا بمفازة من الشيطان أبداً ، ويمكن ليده أن تناوشهم .

٢ ـ وإن هجمة الشيطان على حمى المتقي تنحسر في النهاية عن مس خاطف واجف، لا يحدث في بنائهم صدعاً، ولا في قلوبهم وهماً، ولا في بصيرتهم غيماً.

٣ ـ وإن حساسية قلوبهم تجاه المعصية تجعل رد الفعل صحوة كبرى يخنس لها الشيطان بعيداً.

٤ ـ وهذا الضمير اليقظ لا يغيب أبداً كما يفيد التعبير القرآني :

﴿فإذا هم مبصرون﴾.

وكيف؟ :

إذا ضاعت ساعتك، فبحثت عنها فوجدتها، فمعنى ذلك أنها غابت عنك زمناً، ثم ردها البحث إليك.

أما إذا تفقدت ساعتك التي ظننتها قد ضاعت فإذا هي في يدك، فمعنى ذلك أنها لم تغب، ولكن الغفلة أذهلتك عنها!

فإذا قال الحق تبارك وتعالى : ﴿فإذا هم مبصرون﴾. أي : إذا هم على العهد مبصرون، لم يحرموا وهج البصيرة لحظة من زمان مهماً وسوس الشيطان!

في الوقت الذي يظل إخوان الشياطين من الغاوين في غمرة لا تنجلي من الضلال.

أما الذين اتقوا فمس الشيطان لهم على ما عرفت ـ مثل سحابة الصيف أو عارض الطيف سرعان ما ينجلي بإذن الله.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١.

(بل إننا إذا أمعنا النظر في حكمة ابتلاء المؤمنين بهذه الزلازل السطحية وجدنا فيها كثيراً من الذكرى والتبصرة.

فإنما يريد الله بها أن يصهر قلوبهم بنار الخوف على إيمانهم. ليزدادوا حرصاً عليه، والتجاء إلى الله في حفظه.

إذ من ذا الذي يرى اللصوص يطوفون حول حصنه، ويطرقون بابه. ثم يأمن أن يلجوه أو يظهروه أو يستطيعوا له نقباً.

فكذلك المؤمن:

إذا مسه طائف من لصوص الشياطين خاف أن يتسوروا محراب قلبه، وأن يسرقوا منه أنقى ما فيه، وهو جوهرة إيمانه، لأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

ولأن الله الذي أقدر هؤلاء الشياطين على الوصول إلى باب الحصن قادر على أن يفتح لهم ويمكنهم منه)[1].

ومن هنا يظل المسلم على حذر. وعلى أهبة الاستعداد دائماً لرد كيد الشيطان.. فلا ينام عن قلبه.. عن حقله.. ليظل آمناً من عبث الذئاب.

* * *

خصائص المتقين

عندما انطلق الشيخ الوقور بسيارته عبر الطريق.. لفت أنظار الناس جميعاً! وحاولت أن أفسر هذه الظاهرة.. ظاهرة التعجب من شيخ معمم يقود سيارة!

ولم تطل حيرتي.

فكثير من الناس يحتفظون في أذهانهم بصورة التدين المثلى على هذا النحو العجيب:

شيخ .. يمسك سبحة يعدّ حباتها .. في مسجد .. أو مغارة أو .. يرسل ضراعاته خافتة .. زاهدة في الدنيا .. ولا شأن له بكل ألوان النشاط في هذه الحياة .. التي تأخذ سبيلها في غيبته .

---

(١) المرحوم د/محمد عبد الله دراز، من كنوز السنة.

وفي الوقت الذي يتحرك فيه الآخرون . . فيخرج للناس من لدنه طائرات ، وصواريخ ، وأقماراً صناعية .

وفي الوقت الذي يعتدى فيه على رئيس دولة فينخفض سعر (الدولار) ويزول عنه الخطر . . فيرتفع السعر:

في هذا الوقت الذي يحاول فيه الإلحاد توجيه الحياة لصالحه ـ عن جدارة ـ تبدو صورة التدين هكذا، سلبية، خامدة، هاربة من الميدان!!

وهنا تبرز مسؤولية الدعاة عن تحرير معنى التدين الحقيقي . . ليبدو المسلم كما أراده الحق سبحانه وتعالى شخصية باهرة القوة . . نافذة الكلمة . . تصوغ الحياة طبق منهج الإسلام .

* * *

في مجال التطبيق:

قلت للداعية بعد أن قضيت الصلاة:

ذكرت المتقين وما أعدّ لهم . . وصببت النذر فوق رؤوس أناس لا يجعلون التقوى شريعة لهم ومنهاجاً . .

وهذا حسن . .

ولكن ما رأيك في أن كثيراً من المستمعين يحسبون أنفسهم في زمرة المتقين . . ما داموا يصلون ويصومون ويؤدون عملهم اليومي الرتيب . . وإذن فهم يعتقدون أنك توجه النذر إلى قوم آخرين . . أما هم فمتقون جاهزون!

وحتى تتم موعظتك صدقاً وعدلاً لا بد أن تفصّل منهاج المتقين ومسؤولياتهم في الحياة . . ودورهم الكبير في صنع المستقبل . . حتى إذا قاسوا حياتهم طبق هذا المنهج علموا أنهم ما زالوا ينقلون الخطى في أول الطريق، وتفرض عليهم التقوى أعباء ثقالاً . وعليهم أن يعدوا أنفسهم لتحملها، بالخروج من السلبية المنفعلة إلى الإيجابية الفاعلة .

ولقد أراد قوم أن يجعلوا الدين شعارات . . وأن يقفوا بالتقوى عند الأشكال والمظاهر . . فلفتهم الحق سبحانه وتعالى إلى ما يجب أن يأخذ به المؤمن نفسه على طريق الكمال . . ليصل بالمعاناة ـ على كل المستويات ـ إلى حقيقة العبادة .

يقول سبحانه:

﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾[1] .

فالمتقي بنص الآية الكريمة:

شخصية خصبة بمعاني الخير، والحياة على اتساعها ميدان رحيب بين يديه يعمرها، ويستثمر خاماتها.

وحيثما كان.. وفي كل مواقع العمل فإنه يحقق التقوى بمضمونها الحركي البناء. «**اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن**»[2] .

فالطبيب سبحته: مبضعه.. والفلاح سبحته: فأسه.. وقائد السيارة مع عجلة القيادة، والصانع مع آلته، والمهندس مع زاويته.

كل أولئك على أوفى معاني التقوى ما داموا يتقنون العمل ابتغاء مرضاة الله تعالى..

وما دام هناك داخل النفس رصيد من معاني البر يمتد بها وجود المسلم عبر المستقبل: إيماناً بالله.. وبالآخرة.. وعالمية تتجاوب مع كل رسالة ورسول على مدار الحياة.

وتعاونا على البر والتقوى يقبل عثرة المحتاج.. ليزداد به البنيان قوة وتماسكاً وصلة بالله تعالى تحت كل الظروف، وصبراً كصبر المرسلين يتشبث بهذه القيم.. ويدافع عنها.. بل ويموت في سبيلها.. لتظل الحياة في صحبة الإيمان متجددة أبداً.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٧ .

(٢) الحديث في ج الصغير برقم ١١٥ وروي بثلاثة أسانيد الأول صحيح والثاني حسن والثالث ضعيف.

إن الإيمان بالله عز وجل عقيدة . .

وعقيدة ينشئها الدليل العقلي . . والمشهد الحسي . .

وعن هذه العقيدة الراسخة تنشأ الملكات النفسية في كيان الإنسان . .

ثم تتحرك إرادة الإنسان بتوجيه تلك الملكات . . حركة جسمية ينتقل بها الدين من أمل في القلب إلى واقع نابض بالحيوية والنماء . .

فالتقوى: مصدرها القلب العامر بالإيمان تفيض من القلب على الجوارح فتملأ العالم عدلاً وحكمة.

وهذه هي تقوى المؤمنين:

لا يعرفون بأزياء . . ولا عادات . .

وإنما يعرفون بالعمل الصالح . ومكارم الأخلاق.

أما تقوى غيرهم:

فإنها تفيض من الأزياء والعادات والاصطلاحات. والقلب فارغ . . فالظاهر مبدؤها ومنتهاها . . فمن تمسك بزي العلماء الذي اصطلحوا عليه مثلاً فهو تقي مهما كان فؤاده فارغاً.

ومن خالفهم زيهم. وعادى عاداتهم . . مهما وافق الدين. ومهما امتلأ قلبه إيماناً وحكمة . . وقامت الدلائل الواضحة من الوجود على إيمانه وفضله ووفور تقواه وعلمه . . فهو من الضالين المضلين.

ونعوذ بالله أن نكون من الجاهلين[1].

إن العقيدة الراسخة في النفس . . تسيّر الأجسام في اتجاهها وطوع إرادتها . . لأن حركات الأبدان ـ كما يقولون ـ تابعة لحركة النفوس التي تولدها المبادىء . .

ومن هنا كان المنافقون مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء لأنهم فقدوا المبدأ الذي يثبت الأقدام على الطريق . .

---

(١) المرحوم الشيخ علي الزنكلوني الدعوة والدعاة ٦٤.

ومع هذه الحركة الدائبة المباركة.. وهذا الجهد الموصول لترقية الحياة يستشعر المتقي دائماً عظمة ربه سبحانه.. ثم ضآلة الجهد المبذول في مرضاته.. ومدى حاجته إلى عونه ومغفرته أبداً..

وصيرورة هذه الحاجة شعاراً معلناً في الليل إذا سجى والنهار إذا تجلى:

﴿الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾[1].

وبهذا المستوى العالي من الإلتزام بالطاعة صارت التقوى مقياس الفضل.. ومركز الدائرة.. يقترب منها العمل فيأخذ قيمته الحقيقية.

﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾[2].

﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾[3].

* * *

المتقون.. حداة القافلة:

وكأنما أعدت الجنة للمتقين وحدهم. وعلى الذين يتطلعون إليها أن يسيروا على دربهم: ليفوزوا مثلهم بنعيمها:

ومعالم الدرب هي:

﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين. الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين.

والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾[4].

فلا يستحق دخول «جنة عرضها السموات والأرض» إلا الذين حولوا الدنيا أولاً من حولهم إلى جنات حافلة بالبر والخير.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦ ـ ١٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٨.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣ ـ ١٣٥.

وذلكم هم المتقون!

﴿الذين ينفقون في السراء والضراء﴾.

ولا تحدد الآية الكريمة المفعول هنا.. لتدل على أن الإنفاق صار لهم عاطفة سائدة.. يبذلون بها المال طبعاً لا تطبعاً.. سجية تلك فيهم غير محدثة.

ينفقون في كل وقت.. وكلما دعا إلى الإنفاق داع ولا يتم لهم ذلك بطبيعة الحال إلا إذا كانوا خلايا حية.. يكدحون ويعملون.. ليكسبوا مالاً يقف بهم في صف المنفقين هكذا بسخاء.. وباستمرار!

وتتوارى بذلك صورة المتقي بلحيته الشهباء المرسلة.. وسمته الوقور. معزولاً عن الحياة.. مع السبحة.. والدموع.. لترتسم صورة المتقي الحقيقي من واقع الآية الكريمة.. والتي يبدو بها مع ما سبق شخصية إيجابية. لها دورها.. ولها كذلك وزنها في دنيا الناس.. وأثرها البارز في صنع الأحداث.. بل وفي توجيهها لصالح الإيمان.

ومن صور البلاء على طريق التقوى ما يلاقونه من عنت البخلاء والثقلاء والحمقى.

وإذا كان الكاذب يكره الصادق.. والمنافق يكره المؤمن.. فإن المتقي سيلاقي من ذلك عنتاً.. على قدر ما يملك من ثروة أخلاقية.. وهو مطالب بتضحية أخرى يجاوز بها هذه السدود المعترضة لتمضي قافلة الخير على هدى من الله.. والتي يريد العاصون لها أن تتوقف.

﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾.

إن بذل العواطف الكريمة إزاء هؤلاء المعوقين.. لون آخر من البذل لا يقل عن أخيه خطراً.

ولا يعني ذلك كله أن يتحول المتقي إلى ملاك يمشي على الأرض.. بل إنه بحكم بشريته ومعاناته.. واتساع دائرة نشاطه عرضة للخطأ.. ربما أكثر من غيره!

وقد يسقط في الامتحان يوماً.

قد يرتكب خطأ.. على مستوى الفاحشة!!

بيد أنه لا يستسلم.. ويرتفع بالذكر الدائم.. إلى أعلى.. إلى مكانه الحقيقي:

﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾.

* * *

قضية الساعة

وتبرز هنا حقيقة كبرى جديرة بالبحث والنظر.. من لدن شباب يعملون اليوم في حقل الدعوة جاهدين:

إنهم يريدون الحياة جنة.. والناس فيها ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

مع أن الآية تلفتهم بقوة إلى أن المتقين ـ وهم قمة الإيمان ـ قد يخطئون ومع ذلك لو عادوا إلى الله فإنه يتقبل عنهم توبتهم..

ومفروض على هؤلاء المتحمسين أن يضيفوا إلى الحماس المندفع إدراكاً علمياً يزيدهم بصراً بطبائع النفوس كما رسمها القرآن.. ليواجهوا الخطائين بالسماحة والعفو. وإلا فالعنف هنا ما هو إلا أزمة فشل تهزمون به أنفسكم قبل أن تهزموا الآخرين! ولنعش مع صاحب الظلال وهو يقول تعليقاً على هذه الآية الكريمة موضحاً المعنى:

(يا لسماحة هذا الدين!:

إن الله سبحانه لا يدعو الناس إلى السماحة فيما بينهم. حتى يطلعهم على جانب من سماحته ـ سبحانه وتعالى ـ ليتذوقوا ويتعلموا ويقتبسوا!:

إن المتقين في أعلى مراتب المؤمنين..

ولكن سماحة هذا الدين ورحمته بالبشر تلك في عداد المتقين.

﴿الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾..

والفاحشة أبشع الذنوب وأكبرها.. ولكن سماحة هذا الدين لا تطرد من يقترفونها من رحمة الله. ولا تجعلهم في ذيل القافلة.. قافلة المؤمنين.. إنما

ترتفع بهم إلى أعلى مرتبة.. مرتبة المتقين على شرط واحد.. شرط يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته:

أن يذكروا الله فيستغفروا لذنوبهم.. وألا يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أنه الخطيئة.. وألا يتبجحوا بالمعصية في غير تحرج ولا حياء.. وبعبارة أخرى أن يكونوا في إطار العبودية لله.. والاستسلام له في النهاية.. فيظلوا في كنف الله. وفي محيط عفوه ورحمته وفضله.

إن هذا الدين ليدرك ضعف هذا المخلوق البشري.. الذي تهبط به ثقلة الجسد أحياناً إلى درك الفاحشة.. وتهيج به فورة اللحم والدم.. فينزو نزوة الحيوان في حمى الشهوة...

يدرك ضعفه فلا يقسو عليه.. لا يبادر إلى طرده من رحمة الله حين يظلم نفسه.. حين يرتكب الفاحشة...

شيء واحد يتطلبه:

ألا يحبس قلبه. وتظلم روحه فينسى الله..

وما دام يذكر الله.. وما دام في روحه ذلك المشعل الهادي.. ما دام في ضميره ذلك الهاتف الحادي.. ما دام في قلبه ذلك الندى البليل.. فسيطلع النور في روحه من جديد.. وسيؤوب إلى الحمى الآمن من جديد وستنبت البذرة الهامدة من جديد..

أن طفلك الذي يخطىء.. ويعرف أن السوط ـ لا سواه ـ في الدار. سيروح آبقاً شارداً.. لا يثوب إلى الدار أبداً.

فأما إذا كان يعلم أن إلى جانب السوط يداً حانية.. تربت على ضعفه حين يعتذر من الذنب.. وتقبل عذره حين يستغفر من الخطيئة.. فإنه سيعود)[1].

لقد ابتُلي الإسلام بقلة من الناس يقتحمون على الآخرين حماهم.. وإنهم ليعطون أنفسهم سلطة التحريم والتحليل ومحاسبة الخلق.. فيما يشبه الوكالة الضمنية عن الخالق سبحانه وتعالى!!:

---

(١) في ظلال القرآن.

يجادلون بالسنان ـ لا باللسان.. بالهراوة.. لا بالقلم!!

وقد نسلم دعوى أنهم يحبون الحق.. لكنهم لا يرحمـون الخلق.. وإذا كان الخـالق جل وعـلا ينشر رحمتـه.. للعصاة من خلقـه فما أجـدر أن يفتـح المخلوق قلبه.. ليتسع لأخيه الإنسان في لحظة ضعف قد تحتويه مثلها غداً.

* * *

التقوى . . وحائط الذهب

قـال سهل بن عـاصم: قلت لـزهيـر بن نعيم، وإنـا على سفـر: يـا أبـا عبـد الرحمن . . ألك حاجة؟

قال: نعم.

قلت: وما هي؟

قال: تتقي الله! فوالله لَأَنْ تتقي الله أحب إلي من أن يصير هذا الحائط ذهباً!

والمـوقف هنا واحـد من مجالات التقـوى . . نذكـره ونحن في عالم الـرجـاء لنكون من المتقين . .

لقد عرض الحاكم خدمته في لهجة القادر على إنجاز مـا وعد . . لكن العـالِم يعتذر في أدب . . خارجاً بالاعتذار من أسر الدنيا ، وأسر الحاكم معاً . .

خرج بالزهد . . من عبودية الشهوة والمتاع . . فكـان السيد المـطاع . . وخرج بالعفة من أسـر الجميل حـراً في قولـه الحق في شجاعـة أدبية . . أبيـة . . وصار لـه بالزهد . . والحريـة شخصية قـوية . . تميـزت فلم تذب في شخصيـة الحالكم تحت بريق المطامع . .

وما كان جوابه إلا درسـاً بليغاً في أهميـة التقوى بعنـاصرهـا تلك وكيف كانت حاجة جوهرية تفوق في آثارها ميزانية الدولة كلها . . وإلا . . فإن وفرة المال والرجال في غيبة التقوى يعني غياب الضمير البصير . . وانطلاق الأيدي عابثة مفسدة . . فـلا تنفع الأموال والعمائر . . بعد فوات الضمائر . .

وإن أمة تخسر في مواجهة مشكلاتها مالها . ثم تبقي في قلوبها تقوى الله تعالى لهي قادرة على أن تضرب الأرض فتنبت الخضر . . ويسقط الثمر !.

* * *

مخالفة الهوى

وإذا كنا قد استخرجنا من موقف «زهير بن نعيم» عناصر التقوى فما أثر هذه العناصر في حياة الأمم؟

التقوى في بعض جوانبها: انعتاق من تحكّم الهوى يزداد به المسلم قوة إلى قوته.

والمسلم القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف. . بما يحصله بهذه القوة من خير يدعم به بناء أمته المادي والأدبي معاً:

قال ابن القيم الجوزية:

[إن مخالفة الهوى تورث العبد قوة في بدنه، وقلبه ولسانه. .]

وقال بعض السلف:

الغالب لهواه أشد من الذي يفتح المدينة وحده. . والمتقي يلازم ثغر القلب لئلا يدخل منه الشيطان والهوى فيزيله عن ممكنته. .

وإذا كان الذي يفتح المدينة يقاتل عدواً خارجياً. . فإن الذي يصون نفسه أن تستعبدها الشهوة يخوض معركة مع عدو يلتحم معه وهو قريب منه.

والله تعالى يقول:

﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾(١) .

والعدو القريب أولى بالمجاهدة كما أشار بعض العارفين. .

يقول «الترمذي» مبيناً بقاء المسلم قوياً غير قابل للكسر. . بذكر الله. . والتحرر من الشهوات.

[بذكر الله يرطب القلب ويلين.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٣.

وبذكر الشهوات يقسو وييبس.

فإذا شغل القلب عن ذكر الله بذكر الشهوات كان بمنزلة شجرة إنما رطوبتها ولينها من الماء.. فإذا منعت الماء يبست عروقها. وذبلت أغصانها.. وإذا منعت من السقي وأصابها حر القيظ يبست الأغصان.. فإذا مددت غصناً منها انكسر فلا يصلح إلا للقطع. فيكون وقود النار..

فكذلك القلب:

إذا يبس وخلا من ذكر الله. فأصابته الحرارة. ونار الشهوة فامتنعت الأركان عن الطاعة.. فإذا مددتها انكسرت فلا تصلح إلا أن تكون حطب النار..]

وفي ذكر الله تعالى والارتفاع فوق الدنيا بأسرها تقرأ نبأ ذلك العالم الذي فلسف الموت بالنسبة له فقال:

أنا لا أموت. وإنما أُدْعَى من ربي.. فألبي!

وشوهد يوماً يقول نعم. ثم خر مغشياً عليه. وفارق الحياة..

إنه في حضور دائم مع ربه. وإذا كان الموت في حس الآخرين انتزاعاً من الأهل والمال والوالد.. فإنه في حسابه دعوة من ربه يتلقاها بالقبول والشوق إلى لقاء يحبه.

* * *

قوة الشخصية

في معركته ﷺ مع الوثنية والنفاق كان التحذير شديداً أن ينحاز إلى هؤلاء وأولئك ليظل سيد مصيره.. قوي الشخصية مستقل الإرادة التي يجب أن تكون دائماً حرة في اتخاذ قرارها. ولقد كانت التقوى هي المعتصم الذي لا بقاء للشخصية إلا به، وذلك قوله تعالى وهو يأمره بالتقوى العاصمة من طاعة هؤلاء:

﴿يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً﴾[1]..

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١.

ولقد ضُرب أحمد بن حنبل بالسوط ضرباً لو وقع على الفيل لصرخ.. ولما عرض عليه الخليفة العطاءِ استرضاءً. قال هذه أشد عليَّ من السياط!!

* * *

القيمة العظيمة

إن الحرية هي القيمة العظيمة التي لا بقاء للأمة في غيابها ولقد كانت الحرية في مخاطبة الرؤساء سمة بارزة صان الله بها الأمة من الضياع..

لقد باع سلفنا الصالح الدنيا.. فظهر لهم الحكام ضعافاً صغاراً إلى جانب ما يعلمونه من عظمة الله عز وجل.. على عكس من يستغرق في الدنيا.. فاستعبدته مناعمها وعقد الخوف على هذه المناعم ألسنتهم فلم يقولوا كلمة الحق..

مثـــال:

وهذا يؤكد ضرورة تآخي العلماء والأمراء.

الأولون يعظون.. والآخرون يسمعون وينفذون.. وبهذا التآخي تقوى الأمم.. وبجناحيه.. تطير في كل اتجاه عاملة آملة..

عن سويد الكلبي قال:

إن زر بن حبيش ـ وهو من التابعين ـ كتب إلى الخليفة عبد الملك بن مروان كتاباً يعظه. وختمه بقوله:

ولا يطمعك يا أمير المؤمنين في طول الحياة ما يظهر من صحتك. فأنت أعلم بنفسك.

واذكر ما تَكلّم به الأولون.. إذا الرجال ولدت أولادها.. وبليت من كبر أجسادها.. وجعلت اسقامها تعتادها.

تلك زروع قد دنا حصادها فلما قرأ «عبد الملك» الكتاب. بكى. حتى بل طرف ثوبه.

ثم قال: صدق «زر» ولو كتب إلينا بغير هذا «كان أرفق».

فانظر كيف تواصيا بالنصيحة.. ولو كانت مرة.. لقد بكى الخليفة. وكان

دمعه غزيراً. ولم يمنعه ذلك من الاعتراف بصدق الموعظة وأهميتها لولا ما فيهـا من شدة. لكنه لم يؤاخذه على نصيحته. بل كان أسعد بعالمه الذي يصرف عنه الغرور بصحته أو ثروته أو عشيرته . ليرى الغد المأمول. . وإلى أي مدى استعد له. .

إن الحرية التي منحت للعـالم. وإن الاستجابـة الطيبـة من قبل الحـاكم لهما ركيزة الإصلاح. وقاعدة الانطلاق إلى المعالي.

وآخر دعوانا

أن الحمد لله رب العالمين.

فهــرس الكتــاب